سلسلة الدراسات الأدبية
في
أفغانستان
(٧)

تأثير فكر الأفغاني
في فلسفة إقبال

تأليف

الدكتور محمد أمان صافي

تأثير فكر الأفغانى فى فلسفة إقبال

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ = ١٣٧٤هـ ش = ١٩٩٥م

تليفون: ٣٥٠٩٧١٩

لسة الدراسات الأدبية
فى أفغانستان
(٧)

تأثير الأفغانى فى فلسفة إقبال

تأليف

الدكتور محمد أمان صافى

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعت بمطابع

الفاروق الحديثة للطباعة والنشر

خلف ٦٠ شارع راتب باشا حدائق شبرا

ت: ٦٤٧٥٢٦ - ٢٠٥٥٦٨٨ القاهرة

الإهداء

إلى من فجر الصحوة الإسلامية، وتعالت صيحاته لأجل النهوض بالشعوب والأمم والجماعات، ولأجل القضاء على التخلف والانحطاط فى الشرق بأسره، إلى من أصبح من أمجاد الماضى والمستقبل معا..

إلى من حطم الجمود والتردد والحذر فى العمل لأجل الوحدة الإسلامية، إلى من رفع راية الحق والحرية، إلى من رفع صوته للوقوف أمام الظلم والاستبداد والجبروت لإنقاذ المستضعفين من الشعوب المضطهدة فى العقيدة..

إلى رواد الوعى الإسلامى.. السيد جمال الدين الأفغانى، والشيخ محمد عبده المصرى، والسيد عبد الرحمن الكواكبى، والعلامة محمد إقبال اللاهورى، والشهيد غلام محمد خان نيازى الذين نادوا بالغفاة من أهل السبات والغفلة، وقادوا حركة التحرر الفكرى فى العالم الإسلامى..

إلى هؤلاء، وإلى أمثالهم من القادة المفكرين والرواد الثائرين الذين غرسوا فى الشعوب روح التفكير، وحب الحرية، وشعور اليقظة الدينية والسياسية، إلى هؤلاء الذين نادوا بإنقاذ النفوس البشرية من قيود عنصرية الأجناس والألوان، ومن أغلال العصبيات والقوميات الضيقة، إلى هؤلاء جميعا أهدى هذا الجهد المتواضع الذى بذلته فى الإعداد لإخراج ونشر هذا الكتاب.

مقدمة

للأمة الإسلامية تراث نابع من أعماقها، قوامه القرآن الكريم، والسنة النبوية، يتوارثه المسلمون فى حياتهم المنهجية جيلا عن جيل، دون تفاوت بين عرق أو لغة، أو حاجز من زمان أو مكان. يحافظون على قوامه وقيمه، ويبنون عليه حياتهم المنهجية بالمشاركة والمساندة والمواجهة والوجدان، وبحشد الطاقات والقدرات والإمكانيات، حتى تقدم وتطور، وأخذ طريقه إلى النمو والازدهار والسمو فى حياة الأمة، ومنهجها فى الحياة..

وقد انتاب هذا التراث فى فترة من فترات تاريخه شيء من الضعف والتمزق نظرا لتفرق الأمة وتشتتها بسبب الهجوم الاستعمارى على العالم الإسلامى، وتفتيت أجزائه المترامية الأطراف، فقام دعاة الأمة والمصلحون فيها بخوض غمرات الكفاح والجهاد، استنهاضا للهمم والعزائم، وتنبيها للغافلين لتدارك الخطر، والاعتصام بالوحدة، حتى تكون سدا أمام مطامع الاستعمار ومآربه فى تحطيم الكيان الإسلامى، وافتراس دوله..

والأفغانى إمام الدعاة، وفيلسوف الوحدة، وأستاذ الدعوة، ومؤسس الصحوة الإسلامية منهجا وعملا وجهادا وعقيدة. عاش طوال حياته شريدا طريدا مضطهدا فى سبيل تشييد صرح هذه الصحوة العملاقة، والنهوض بتلك الدعوة الحكيمة

التى خلفت فى العالم الإسلامى تيارا يحرك عواطف الشعوب، ويهيب بأصحاب الهمم إلى الصمود، ويعيش حيا نابضا فى وجود الأمة على امتداد التاريخ، يملأ النفوس ثقة وأملا، وغاية وعملا، حتى تلقاه العقل الواعى، والفيلسوف الشاعر، والقوة الناطقة بالحق محمد إقبال، وهو أحد المفكرين الذين أحدثت فيهم دعوة الأفغانى أثرها، وقد أحدث إقبال بدوره ثورة فكرية بين مسلمى الهند، متبعا فى ذلك أسلوب الأفغانى وطريقة دعوته، فكان نعم الخلف لخير السلف فى تجسيد فكرة الأفغانى، وتحقيق رغبته، وإعادة الروح إلى بعض آثاره.

الدكتور/ محمد أمان جان صافى الأفغانى

السليمانية – جدة

١٤١٣/٦/١٠هـ = ١٣٧١/٩/٣١هـ ش = ١٩٩٢/١٢/٤م

تأثير فكر الأفغاني فى فلسفة إقبال

سرنا فشاهدنا شخصين يصليان ❁❁ المقتدى تترى والإمام أفغانى
وهو سيد السادات مولانا جمال ❁❁ الذى نفخ الحياة فى الحجر والفخار

إقبال – جاويد نامه

العصر والزمان:

نحن نتحدث فى هذه الرحلة التاريخية والفلسفية عن مرحلة من مراحل التاريخ الفكرى للسيد جمال الدين الأفغانى، التى لم يتكون فيها تصور كامل وواضح لدينا عن شخصيته وعن أفكاره الفلسفية فحسب، بل بالإضافة إلى ذلك فإن آراء كثيرة ونظريات كافية، وحقائق علمية وافية قد ظهرت حول فلسفته الفكرية، وآرائه الإصلاحية، وعن شخصيته الاجتماعية، وعن موقفه العلمى العقلى الناضج، وعن مواقفه السياسية، وعن منهجه فى تطهير الدين من البدع، والرجوع إلى القرآن الكريم، والعودة إلى السنة النبوية المطهرة. وهذا هو العصر الذى بدأ فيه شاعر الإسلام محمد إقبال اللاهورى نشاطه الثقافى العملى بالقيام على إلقاء المحاضرات والخطب، وبالكتابة فى المجالات الصحفية والثقافية لإحياء الجانب الفكرى الدينى فى الإسلام. وقد اتجه شاعر الإسلام إقبال بفكره النير إلى الموضوعات السياسية، والقضايا الدينية، ثم تدرج فى تحقيق هذه الرغبة السياسية والدينية؛ وكانت خطواته الأولى فى مزاولة السياسة العملية بطيئة ومتأنية إلى درجة كبيرة.

الضجة وصداها:

فقد قام شاعر الإسلام محمد إقبال اللاهورى بنشـر أول دواوينه الشعرية فـى الفلسفة، واسمه "أسرار خودى = أسرار الذاتية" سنة ١٩١٥م، ثم قام بنشر ديوانـه الثانى "رموز بى خودى = رموز نفى الذاتية" سنة ١٩١٨م[١]، وفى الديوانين شعر فيه فلسفة إقبال الضاربة فى الفكر الإسلامى المتأثرة بفكر جمال الدين الأفغانى. ثم قام سنة ١٩٢٢م بكتابة بحث أو مقال قيم تحت عنوان "الاجتهاد" الـذى تم إلقـاؤه وقراءته فى اجتماع كبير لجمعية حماية الإسلام فى لاهور[٢] وكان شـاعر الإسـلام عضوا فيها، ثم رئيسا لها؛ وقد أثار بحثه هذا[٣] بالإضافة إلى ما أثارتـه منظومتـاه.. الأسرار والرموز صدى كبيرا، وضجة كبرى من المعارضة الشديدة والاستحسان.. ثار الناس فى الشرق والغرب بين راض وساخط، وبين مصفق ومستنكر، وكـثرت الأقوال فى القبول والرد، وفى التأييد والرفض، كمـا كـثرت المقـالات بـين المـدح والقدح، حتى وصل الأمر ببعـض مـن رجـال الديـن الجـامدين أصحـاب الأفكـار البالية إلى حد إصدار الحكـم بكفـره وإلحـاده وخروجـه عـن الديـن[٤] هـؤلاء مـن الرجال الذين يدعون أنهم من رجاله، قد جعلوا من الدين شاهينا يصيدون به على حد قول الشاعر العربى:

قـد يفتـح المـرء حانوتـا لمتجره ❁❁ وقد فتحت لك الحانوت فى الدين

---

(١) الدكتور عبدالوهاب عزام: محمد إقبال ٤٨، مطبوعات باكستان

(٢) مجلة "ميثاق خون" ص ٤٥-٤٩ السنة السادسـة العـدد ١٢، بـرج الحـوت ١٣٧٠هـ ش. مقال بقلم غلام حسين ذو الفقار، ترجمة أمين الله الخراسانى.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

صيرت دينك شاهينا تصيد به ❁❁ وليس يفلح أصحاب الشواهين

خاطرات ٤٧

وقد حاول الفيلسوف الشاعر إقبال أن يقف فى طريق إذاعة هذا الحكم الصادر ضده، وأن يمنع إشاعة مضمونه بين الناس، إلا أنه نظرا لمقتضيات العصر ومتطلباته الملحة، فقد أبدى اهتمامه الفائق بدراسة أسلوب الحضارة الإسلامية والتركيز عليها للعمل بها أثناء التعامل والنقاش مع المعارضين، كما أبدى اهتمامه البالغ بأسلوب حرية التعبير عن الأفكار، وإظهار الرأى فى القضايا الدينية وغيرها من الأمور، الأمر الذى يؤيده ويقره الإسلام. وبناء على ذلك فقد قام العلامة إقبال بمكاتبة عدد من الشخصيات الإسلامية وعلماء المسلمين وراسلهم لتبادل الرأى، وإيضاح الأمر، والتمييز بين ما أراد، وما يريده المعارضون الذين يعاندونه فيما أراد، فراسل العلامة سيد سليمان الندوى[1]، والسيد حسن نظامى، والشاعر أكبر إله آبادى، وسراج الدين بال، والشودرى محمد أحسن؛ وكتب إلى غيرهم من العلماء والزعماء ليرد على شبهات المعترضين ومآخذهم[2].

الاعتراف بعظمة الأفغانى:

أعتقد جازما أنه استفاد من آراء السيد جمال الدين الأفغانى أثناء البحث والفحص والتحقيق، وتأثر بها فى ردوده على من أنكروا عليه أفكاره وآراءه العلمية فى الأسرار والرموز وفى مقاله عن الاجتهاد، كما أعتقد جازما أنه تأثر

---

(١) المرجع السابق، بتصرف.

(٢) الدكتور عزام: محمد إقبال ٦٢ - ٦٧، ومجلة "ميثاق خون" ٤٥ - ٤٩، عدد الحوت ١٣٧٠هـ ش.

أثناء ذلك بالعظمة العلمية التى تتمتع بها شخصية الأفغانى، وبنفوذه القوى وبآثاره العريضة التى تركها كبصمات خالدة مؤثرة فى كل من أفغانستان ومصر وتركيا وإيران والهند، وفى غيرها من البلاد والعباد، وبشهرته العظيمة فى الدفاع عن الإسلام والشعوب الإسلامية.. إنه بعد هذه المرحلة من التفكر والتأمل فى عظمة الأفغانى والتأثر بها يطلع تماما وبصورة كاملة على سيرة هذا الزعيم الثائر، والمفكر المصلح، صانع التاريخ الإسلامى فى العصر الحديث، ويعلن اعترافه بفضله وعلمه وتأثيره من خلال تصوره، بل من خلال حديثه فى محاضراته التى طبعت فى شكل كتاب عنوانه "تجديد التفكير الدينى فى الإسلام" الذى نقله إلى اللغة العربية المفكر الإسلامى العظيم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله. ثم يعلن ذلك أيضا فى ديوانه الخالد "جاويد نامه" ومعناه الكتاب الخالد، وفيه تورية إلى جاويد ابن شاعر الإسلام محمد إقبال، وفى غيره من كتاباته ورسائله النثرية التى نقرأ فيها رأيه فى شخصية هذا المفكر العبقرى العملاق الذى جمع فى عقله ما بين الحكمة الفلسفية والإيمان بجوهريات الإسلام، وحقائقه الأولية فى صورتها النقية المبرأة من الخرافات والإضافات، وتأثره بدعوته إلى وحدة المسلمين الذين "نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضا من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا فى الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الأباعد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم"[1] كما نقرأ فيها إعجابه به وبأفكاره فى دراسة

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٢: ٢٧، تحقيق الدكتور محمد عمارة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨١م، والعروة الوثقى ١١٠، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربى بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

الدين، وفى اهتمامه بالمسئولية الملقاة على عاتق المسلمين فى هذا العصر. فيقول فى محاضرة له بعنوان "الألوهية ومعنى الصلاة" تلك المحاضرة التى نرى فيها ونقرأ موضوعات: التجربة الدينية، والذات، والجبر، والقدر، والبرزخ، والنشأة الأولى، والحياة بعد الموت، والخلود، وغيرها من القضايا الفكرية فى إطارها الدينى. يدعو فيها المسلمين الذين قاموا بقطع صلتهم بماضيهم الإسلامى، وبما كان فيه من النظام الفكرى النير، وتعلقوا بالنظم الفكرية الحديثة التى لا علاقة لها بالإسلام وبتصوراته الفكرية الخالدة، يدعوهم، ويلح عليهم بالعودة إلى الإسلام وتعاليمه السماوية، وتحمّل ما ألقى على عاتقهم من المسئوليات الهائلة: "[١]... وعلى هذا فالمهمة الملقاة على عاتق المسلم العصرى مهمة ضخمة؛ إذ عليه أن يفكر تفكيرا جديدا فى نظام الإسلام كله دون أن يقطع ما بينه وبين الماضى قطعا تاما. ولعل أول مسلم أحس بإلحاح روح جديدة فيه شاه ولى الله الدهلوى. ولكن الرجل الذى أدرك تمام الإدراك أهمية هذا العبء وفداحته، وكان دقيق البصر بالمعنى العميق لتاريخ الفكر والحياة فى الإسلام، جامعا إلى ذلك أفقا واسعا نشأ عن خبرته الواسعة بالرجال والأحوال خبرة تجعل منه همزة الوصل بين الماضى والمستقبل، هو جمال الدين الأفغانى. ولوأن نشاطه الموزع الذى لم يعرف الكلل اقتصر بتمامه على الإسلام بوصفه نظامالعقيدةالإنسان وخلقه ومسلكه فىالحياة،لوأنه اقتصر علىذلك لكان العالم الإسلامىأقوىأساسامن الناحيةالعقليةمماهوعليه اليوم"[٢]

---

(١) محمد إقبال: تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ٧٥ – ١٤١، ترجمة عباس محمود العقاد، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥م.

(٢) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ١١١، الترجمة العربية.

الأفغاني هو المجدد في نظر إقبال:

كتب شاعر الإسلام محمد إقبال في إبريل عام ١٩٣٢م رسالة إلى الشودري محمد أحسن عبر فيها عن رؤيته ورأيه في فكرة "المجدد" و"المهدي" في الإسلام فقال ما معناه: إذا كان يوجد في العصر الحاضر أحد من المصلحين يستحق أن يقال له "مجددا" فإن ذلك الشخص ليس إلا السيد جمال الدين الأفغاني الذي يستحق هذا اللقب. وإذا كان في تاريخ المسلمين في مصر وإيران وتركيا والهند أحد يستحق أن يكتبوا عنه بأنه مجدد، فإنهم سيذكرون في ذلك اسم الشيخ محمد ابن عبدالوهاب النجدي، ثم يأتي اسم السيد جمال الدين الأفغاني على رأس القائمة. وهذا الأخير هو المؤسس الحقيقي لمشروع آمال المسلمين، ونشأتهم الثانية في هذا العصر. فإذا لم يكن هناك شعب من الشعوب قد لقبه بالمجدد، أو أن الأفغاني نفسه لم يدع بأنه مجدد، فإن ذلك لا يبعده عن كونه مجددا في نظر أهل البصيرة والدراية[1].

إقبال يرد على نهرو ويركز على شخصية الأفغاني:

وفي سنة ١٩٣٥م عندما أثيرت الفتنة القاديانية، وطفت على السطح تساؤلات نشأت عن مقال كتبه جواهر لال نهرو في ذلك، فتصدى له العلامة محمد إقبال وقام بالرد عليه في مقال طويل له، تحدث فيه عن الأفغاني أثناء تناوله

---

(١) إقبال نامه، حصه دوم، ص ٣٢ و ٢٣٢ (رسالة إقبال جـ٢ ص ٣٢ و٢٣٢) نقلا عن مجلة "ميثاق خون" ٤٥ - ٤٩، عدد الحوت ١٣٧٠هـ ش.

أسباب تخلف المسلمين، وزوال أمرهم، وذلك ضمن حديثه عـن إحياء الحركات الثورية الإسلامية فى العالم الإسلامى، فركـز فـى حديثه بإسهاب علـى شخصية السيد جمال الدين الأفغانى، وعلى أعماله العظيمة، فى دعوته الإسلامية العظيمة التى يدعو فيها المسلمين إلى التمسك بأحكام القرآن الكريم، والسنة النبوية... "يجب على كل مسلم، يبغى نجاة الإسلام والمسلمين أن يعمل بأحكام القرآن، ويطبقها تطبيقا دقيقا، وأن يقتدى بأسلافه من أهل الصدر الأول من المسلمين، وأن يجعل دأبه خلوص النية، وصفاء الباطن، وخدمة المجتمع، والابتعاد عن البخل والحسد والطمع، وأن يلتزم بساطة العيش، والعمل بالواجبات، واجتناب المحرمات. فهذه هى الوسيلة الناضجة التى اتبعها أسلافنا فنجوا"[1].

مكانة الأفغانى بين الزعماء المصلحين فى العصر الحديث:

يقول محمد إقبال عن عظمة هذا الرجل، وعن انتشار آثاره العلمية والفكرية والسياسية فى أنحاء العالم بأسره:

"... لقد ذكر من قبل أن الزوال السياسى للإسلام قد وصل فى سنة ١٧٩٩م إلى نقطة النهاية، وعلى كل حال كان ينبغى أن تزيد القوة الجوهرية للإسلام، وأن تنمو نموا مطردا، وأن تتعاظم، ولكنه حدث ما حدث. فما هى العلل والأعذار، وما هى الأسباب التى أدت إلى ذلك، وكيف يمكن أن نستنتجها، ونحصل عليها مما حدث، وأن نحس بها الآن، ويتم تقييمها، وتحديد الموقف إزاءها بالنسبة للعالم؟..

---

(١) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ٢: ٦٧

فقد ظهر في القرن التاسع عشر كل من سر سيد أحمد خان في الهند، والسيد جمال الدين الأفغاني في أفغانستان، والمفتي عالم خان في روسيا، وقد تأثر هؤلاء العلماء في الغالب بالشيخ النجدى محمد بن عبدالوهاب المولود في سنة ١٧٠٠ في نجد، وقد أصبح مؤسس الحركة التي اشتهرت بالوهابية، وكان يؤمن بوجوب البحث عن حركة الحياة الأولى في الإسلام الجديد (وليس في التقاليد).

بقي نفوذ سر سيد أحمد خان وأثره منحصرا تماما داخل الهند، ولم يتجاوزها، أما شخصية السيد جمال الدين الأفغاني فكان شيئا عظيما من نوع آخر. وكان من الحكمة الإلهية التي تثير الدهشة أن يظهر في عصرنا هذا أعظم شخصية دينية تقدمية من حيث الفكر والعمل في أفغانستان"[1].

إيضاح للكاتب:

من الواجب هنا أن أشير إشارة موجزة إلى أن أفغانستان هي التي أنجبت بالإضافة إلى السيد جمال الدين الأفغاني الذي تأثر به إقبال، كثيرا من الرواد في العلم والأدب، وفي السياسة والسيادة، وفي القيادة والريادة والبطولة، من أمثال أبي داود سليمان السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥هـ) في علوم الحديث، ومكحول بن عبدالله الكابلي المتوفى سنة ١١٣ أو ١١٤هـ إمام أهل الشام وفقيههم العظيم، والخطابي البستي (٣١٩ - ٣٨٨هـ) في العلوم والدراسات القرآنية واللغوية، وابن حبان البستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ في العلوم الإسلامية، وابن سينا (٩٨٠-

---

(١) كلام إقبال، نقلا عن مجلة "ميثاق عون" ٤٥ - ٤٩، برج الحوت ١٣٧٠هـ ش، علما بأنني قمت بترجمة النص الفارسي بشيء من التصرف.

١٠٣٧هـ) فى العلوم الطبية، والسلطان محمود الغزنوى (٣٦١ - ٤٢١هـ) فى الفتوحات الإسلامية، وأبى الفتح البستى المتوفى سنة ٤٠٠هـ فى الشعر والأدب، والوزير أبى القاسم حسن بن أحمد الميوندى (الميمندى) المتوفى سنة ٤٢٤هـ فى الشئون الإدارية والوزارية، والإمام البغوى (٤٣٦-٥١٠هـ) فى علوم الحديث والتفسير، ومحمد سراج الدين السجاوندى المتوفى سنة ٦٠٠هـ فى العلوم الفقهية والمواريث، والسلطان محمد الغورى المتوفى سنة ٦٠٢هـ فى الفتوحات الإسلامية، والإمبراطور شير شاه (شير خان) سورى (الغورى) (١٤٧٢ - ١٥٤٥م) قاهر المغول، فى المواهب القتالية والإدارية، والإمبراطور أحمد شاه الدرانى (١٧٢٢ - ١٧٧٣م) بطل معركة "بانى بت" فى الدفاع عن المسلمين فى الديار الهندية، والملك أمان الله خان بطل معركة الاستقلال فى أفغانستان، وقبل هذا وذاك الإمام الجوينى إمام الحرمين الشريفين فى الديار المقدسة، والإمام أبى حنيفة النعمان فى الفقه الإسلامى.

عودة إلى حديث إقبال عن الأفغانى:

وبعد الإشارة إلى هذه الملاحظة الملحة نعود مرة أخرى إلى الحديث عن تأثير الفكر الإصلاحى للسيدجمال الدين الأفغانى فى مفكر الإسلام محمد إقبال الذى يواصل حديثه عن ذلك، فيقول:

"... إن السيد جمال الدين الأفغانى كان متمكنا من جميع لغات العالم، وكان يفهم ٢٢ لغة، وكان السحر البيانى معجون البلاغة والفصاحة فى كلامه، كان يتنقل من بلد إسلامى إلى بلد إسلامى آخر بروح صافية بلا شوائب، وقد ترك تأثيره القوى فى الشخصيات الممتازة فى كل من إيران ومصر وتركيا، وأوجد فيها

نوابغ وصناديد أقوياء، أثر فى عدد من العلماء الأجلاء فى عصرنا من أمثال المفتـ محمد عبده، وغيره، ومن هؤلاء العلماء البارزين من وصلوا إلى قمة النجا والتوفيق والشهرة، وأصبحوا قادة عظماء فى السياسة، قادوا شعوبهم، وحققو أهدافها ومراميها من أمثال سعد زغلول باشا وغيره فى مصر..

إن كل هؤلاء الزعماء من تلاميذه، ومريديه. كان السيد الأفغانى يتحدث كثيرا، ويكتب قليلا، وبهذا تحول كل من كان فى صحبته، ويلازم مجلسه إلى جمال الدين الأفغانى. إنه لم يدع و لم يقل أبدا إنه مجدد، أو إنه من الأنبياء أو الرسل، كما ادعى القاديانيون النبوة. لا يوجد فى عصرنا أحد أبدا قد امتزج بالروح الإسلامية كما امتزج هو بهذه الدرجة من الغليان الصاخب، والمور المتموج، إن روحه المقدسة ما زالت مضطربة فى قلق شديد، وفى سعى دائم، وجهد مستمر، واجتهاد فى هذا العالم بلا نهاية"[1].

إقبال يصور ما للأفغانى من الزعامة والريادة:

وقد صور الشاعر إقبال زعامة الأفغانى وقيادته للمسلمين وتأثره به فى الأبيات الآتية من شعره الرائع فى ديوانه "جاويد نامه = رسالة الخلود" الذى سجل فيه سفره الروحى والخيالى فى عالم الأفلاك، وهو يصاحب فى ذلك شيخه ومربيه الروحى والفكرى الشيخ جلال الدين محمد البلخى الذى يعبر عنه بالمرشد الرومى، نسمعه حيث يقول:

---

(١) المرجعين السابقين، والترجمة تمت بشىء من التصرف.

(قال الرومى): قم حتى ندرك الصلاة
ونقضى لحظات (سعيدة) في ذوبان القلق
فسرنا وشاهدنا شخصين يصليان
المقتدى ترى والإمام أفغانى
والمرشد الرومى في الحضور[1] كل لحظة
طلعته قد أضاءت من حسن الذوق والسرور
قال: إن الشرق لم ينجب أفضل من هذين الشخصين
اللذين قد حلا بمساعيهما كثيرا من عقدنا
أحدهما سيد السادات مولانا جمال
والثاني ذلك الأمير التركى الجريح البال سعيد حليم
إن ركعتين مع هذين الرجلين من أفضل العبادات
وإلا، فذلك هو العمل الذى أجره جنة[2]

إقبال لا يعرف شيئا اسمه موارأة:

لم يقل الفيلسوف الشاعر إقبال هذه الأقوال، و لم يعلن هذه الاعترافات بفضل زعيم الثائرين المصلحين السيد الأفغانى، وتأثره به للمجاملة أو الموارأة أو لمجرد التعريف به وبحركته الإصلاحية، لأنه أى المفكر الشاعر محمد إقبال ليس من الذين يبيعون كلماتهم، وأفكارهم، وأقوالهم للمراهنة أو المجاملة أو التلطف، كما هو

---

(١) الحضور: فى اصطلاح الصوفية الغيبة عن الخلق، والحضور عند الحق.

(٢) كليات إقبال ٦٤٨، الطبعة الثالثة، لاهور ١٩٧٨م.

شأن بعض الشعراء؛ وليس الأفغانى الثائر من الذين يحتاجون إلى التعريف والمجاملة، وكذلك حركته الإسلامية الثورية معروفة حية لا تحتاج إلى التعريف والتجديد والإحياء من جديد. إذن لم تصدر هذه الأقوال والاعترافات بصورة تقليدية، بل إنها توضح الفكرة التى تكونت ونضجت فى ذاكرة إقبال ووعيه نتيجة لدراسته العميقة للآثار والأفكار التى ظهرت حول فلسفة الأفغانى الإسلامية، وحول فكره الإصلاحى فى هذا العصر الذى عاش فيه محمد إقبال المفكر، فقام بالتعبير عنها فى شعره ونثره، كما قام بتصويرها فى رسائله التى وجهها إلى المفكرين والزعماء، وفى محاضراته التى ألقاها فى المحافل العلمية والثقافية، معترفا فيها بفضل الأفغانى، وتأثره العظيم بأفكاره، وهى شاهدة بوقدة قلبه، وذكاء عقله، وإيمانه بالصحوة الإسلامية التى دعا إليها الأفغانى، ويتردد صداها فى جنباته التى امتزجت بروح الأفغانى امتزاج الرائحة بالورود والرياحين، كما يمتزج النور بالكواكب المضيئة، والمصابيح النيرة.

العالم الإسلامى بين ويلات الحروب وأخطار الشيوعية:

ففى الوقت الذى خرج فيه الفيلسوف الشاعر محمد إقبال من كهفه فى عالم اللاوعى.. عالم الأحاسيس النفسية التى تتفاعل فيها ثوراته العاطفية، وتتصارع فيها تأثراته العقلية، وتتشابك فيها تخيلاته الذهنية، فى هذا الوقت كان العالم الإسلامى غارقا فى مشاكله السياسية، وقضاياه المصيرية الملحة من أعلى رأسه إلى أقصى قدميه.. كانت الحرب الكونية الأولى قد هزت العالم بكل أرجائه هزا عنيفا، ودكته بكل أركانه دكا قويا، بحيث جعلته يتجه وجهة الاضمحلال والانحلال والتقشع المريب. وبالإضافة إلى ذلك كان العالم كله فى طريقه إلى

حرب كونية أخرى مدمرة ومرعبة، لا تبقى ولا تذر. وفى أعقاب الاستعمار الغربى البغيض، بل متزامنا معه ظهرت الشيوعية القذرة كنظام متعفن ملحد من أساسه، كافرا با لله، منكرا وجوده، وبدأت تحارب الإسلام[1]، وتعمل ضد قيمه وتعاليمه، وبكل ما فيها من القذارة والوقاحة جعلت المسلمين، وعالمهم الإسلامى هدفا لأغراضها السياسية، ومراميها القذرة، ليس هذا فحسب، بل جعلت الحضارة المادية التى نشأت فى العالم الغربى هدفا لسهامها المسمومة، حتى أصبحت صيدا ذليلا، مغلوبا على أمره فى قبضتها العنكبوتية، وكيدها الأحمر الحاقد الهدام.. وبالإضافة إلى خطر الاستعمار الغربى وخطر الشيوعية كان هناك خطر ثالث، بل عدو ثالث أكثر ذكاء ودهاء، وهو خطر اليهودية العالمية، وحركة الصهيونية الحديثة التى وجهت جهدها وفكرها ضد الشعوب الإسلامية، وعقيدتها الدينية.

إقبال يبنى فلسفته على أسس فلسفة الأفغانى:

فى هذه الظروف العدائية التى كانت تحيط بالمسلمين وعالمهم الإسلامى قام مفكر الإسلام محمد إقبال ببناء فلسفته الإسلامية على الأسس والقواعد التى أعلنها سيد السادات[2] جمال الدين الأفغانى الذى يقول: إن " كل مسلم مريض، ودواؤه فى القرآن، وما على طالب الحكمة إلا أن يتدبر معانيه، ويعمل بأحكامه"[3] بنى

---

(١) مجلة "ميثاق خون" ٤٦، عدد برج الحوت ١٣٧٠هـ ش.

(٢) هذا اللقب مأخوذ من بيت شعر للشاعر محمد إقبال. راجع كليات إقبال ٦٤٨، الطبعة الثالثة، لاهور ١٩٧٨م.

(٣) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٥١، الطبعة الثانية،دار الفكر الحديث، لبنان ١٩٦٥م – ١٣٨٥هـ.

إقبال فلسفته الإسلامية على هذا الأصل، وهي فلسفة التنفيذ والتطبيق والعم بأحكام القرآن، وفلسفة الأمل والجهاد والإقدام للدفاع عن القرآن، وفلسفة العـ والكرامة والحرية التى يدعو إليها القرآن.. وهذه الفلسفة هى المدد المؤثر، والعو الفعال للشعوب الإسلامية التى تجاهد لحريتها وكرامتها، وللعمل بكتابها.. تبعـ فيها النور والنار مع العمل والأمل. ومما لاشك فيه أن روح كل من اللاهورة وأستاذه الأفغانى لتشعر بالفخار والعظمة وبالسعادة الغامرة لما قام به الشعـ المجاهد فى أفغانستان من إحرازه النصر المؤزر على قوى البغى والطغيان، فى جهاد البطولى ضد الإلحاد الروسى، وأيدته فى ذلك دولة الإسلام التى طالب بها الشاعر المسلم محمد إقبال الذى أشعل بشعره ثورة عارمة فى النفوس المسلمة على سلطان الإنجليز والهندوس فى الهند، وأمدها بالأمل العظيم، والعزم الأكيد، والإقدام الجرىء على التضحية والبذل والعطاء بالفعل والقول والعمل، فوقفت تلك النفوس المسلمة راسخة كالصخرة الصماء، لم تتزحزح، ولم تتزلزل لحظة واحدة حتى حققت أمل المسلمين فى قيام دولة الإسلام والمسلمين فى شبه القارة الهندية، والتى وقفت مؤيدة للشعب الأفغانى المسلم فى جهاده ضد الاحتلال الروسى، تلك الدولة العظيمة التى كانت أمل المسلمين فى الهند، وقد عبر عنه الشاعر لأول مرة عام ١٩٣٠[(١)]، ثم سنة ١٩٣٢م حين جاء الزعيم التركى حسين رءوف بك إلى الهند، وألقى محاضرة فى الجامعة الإسلامية فى دهلى فى جمع حاشد؛ وقد رأس الشاعر محمد إقبال إحدى محاضراته، وكانت فى "اتحاد المسلمين" فى الهند، فتكلم

(١) الدكتور عثمان أمين: رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى ١١٨ - وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى مصر، القاهرة ١٩٦١م.

فيها بعده، وأبطل دعوة الوطنية والقومية؛ وأبان عن مفاسدها وأضرارها[1]، لأنه يرى فيها "بذور المادية الملحدة وهى عندى أعظم خطرا على الإنسانية فى عصرنا"[2] وفى سنة ١٩٣٣م تباحث مع ملك أفغانستان محمد نادر شاه أحوال المسلمين، وكان شديد الحساسية والألم لما آلت إليه حال المسلمين، وكان دائم التفكير فيما يعلى من شأنهم، ويعيد إليهم سابق مجدهم فى ميادين القيادة والريادة فكرا وعملا. شأنه فى ذلك شأن السيد جمال الدين الأفغانى، فكل منهما يحلم بعالم إسلامى مطمئن يهتدى بهدى الدين، ويؤمن بالقيم الرفيعة فى الدين الإسلامى. إن شخصية محمد إقبال المفكر من أبرز الشخصيات التى أثر فيها منهج السيد جمال الدين الأفغانى الفكرى والإصلاحى.

إقبال يلهب مشاعر المسلمين بأسلوب الأفغانى:

كان على فيلسوف الإسلام إقبال أن يقوم **أولا** بتعريف المسلمين بأنفسهم وبأهدافهم الذاتية، وأن يبصرهم **ثانيا** بحقيقة الإسلام وعظمته، وأن يملأ **ثالثا** قلوب الشباب بحب القرآن الكريم والسنة النبوية، ليفيضوا بالحقائق الإسلامية النقية الصافية بعيدة كل البعد عن الإضافات والتأويلات. و"تجديد الفكر الدينى فى الإسلام" كان أمرا من الأمور الضرورية لتحقيق هذه الأهداف، ومن هنا نراه يقوم بإلقاء المحاضرات الخاصة بذلك فى الأرجاء المختلفة فى الهند، فى جامعاتها

(١) عزام: محمد إقبال ٣٥

(٢) المرجع السابق ٣٨

ومعاهدها العلمية التى كانت توجه الدعوة إليه ليقوم بزيارتها وإلقاء المحاضرات فيها. فقام بإلقاء المحاضرات فى مدراس، وإله آباد، وعليكره، وبنكلور، وميسور، وحيدر آباد دكن، ومدينة دهلى. كان إقبال من أكثر المفكرين المسلمين إحاطة بمشاكل مسلمى الهند، كما كان واسع المعرفة بمذاهب الفكر فى العالم، الأمر الذى ساعده فى صياغة مذهبه الفكرى جمع فيه بين العلم والدين، وبين الأدب والفن، وليس من التصوف الإسلامى ببعيد. وقد بين إقبال غرضه من هذه المحاضرات: وهو بيان صلة المسلمين بفلسفة الغرب، وعلومه المادية. وحاجتهم إلى إعادة النظر فى الإسلام كله، دون انقطاع عن الماضى القريب والبعيد، وذلك على ضوء ما كشف عنه العلم الحديث من حقائق فى الكون، وطرائق للنظر فى الطبيعة[1] ومما لاشك فيه أن شاعر الإسلام محمد إقبال قد ألهب مشاعر المسلمين عامة، ومشاعر الشبيبة بخاصة بشعره النابض بالحياة الإسلامية وبمحاضراته التى استجابت لها النفوس، وتلهفت لها الوجدانات. وقد أعاد إقبال إلى الأجيال الجديدة من المسلمين ما افتقدوه من الثقة بالثقافة الإسلامية، كما بعث فى نفوسهم تصميما على أن يبعثوا أمام الأبصار والأنظار الحضارة الإسلامية المجيدة التى كانت فى يوم من الأيام نعمة سابغة على العالم كله[2] وهو يتفق فى ذلك مع ما قام به جمال الدين الأفغانى فى خطبه ودروسه، وما ترك ذلك من الآثار العظيمة التى ما زالت تتفاعل وتتموج فى نفوس المسلمين حتى اليوم.. "إن الحركة التى هزت العالم الإسلامى فى أواخر القرن التاسع عشر، واستهدفت بعث الإسلام

(١) رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى ١٢٠

(٢) المرجع السابق ١٢٧

وتحقيق الوحدة الإسلامية، كانت مدينة بالدرجة الأولى إلى تفكيره"[1] فقد استطاع الأفغاني أن يؤثر في العالم الإسلامي دينيا وسياسيا واجتماعيا وأدبيا، كما أثر في سير الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي.

إن كلا منهما يستمد إلهامه هذا وتأثيره من تعاليم الإسلام، ونبيه الكريم، وحطم كل منهما أصنام الأجناس، والألوان، وتماثيل الأفراد، وخرافة الأقوام المختارة، واستبداد الحكام والأشخاص. وهو يقول في بعض شعره:

"ما مقصود الفطرة، وكنه الإسلام؟
شيوع الأخوة وفيض المحبة
حطم أصنام الدم واللون والجنس
وافن ذاتك الآدمية في الملة
انس الفروق بين التوراني والإيراني والأفغاني"[2]

لا شك في أن الشاعر إقبالا قد تأثر بتعاليم السيد جمال الدين الأفغاني التي ملأت أرجاء العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي كما تأثر بها غيره من رواد الفكر الإسلامي من أمثال السيد عبد الرحمن الكواكبي عدو الاستبداد، والسيد محمد رشيد رضا عاشق جمال الدين الأفغاني، والشيخ علي يوسف تلميذ جمال الدين الأفغاني في الصحافة، والسيد مليكم خان، وأبو الأعلى المودودي، والشهيد غلام محمد نيازي، وغيرهم قديما وحديثا. فقد استطاع

---

(١) الدكتور عبدالباسط محمد حسن: جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي الحديث ٢٥٩

(٢) رواد الوعي الإنساني ١٤٧

الأفغانى أن يخلف وراءه مدرسة تأخذ بتعاليمه، وتعتمد على آرائـه، وكـانت قويـة الأثر، واضحة المعالم، فانتشرت تعاليمه وآراؤه على مستوى العالم كله، فكـان لها أثر خالد فى قيام الصحوة الإسلامية، والنهضة الفكرية، وفى تطوير الأفكار الدينية التى استمرت جذورها الثابتة تؤتى ثمارها حتى الأيام التى أعاد فيها إقبال الثقـة إلى نفوس المسلمين فى الهند، وحمل رسالة جمال الدين، واستفاد مـن آرائـه الحكيمـة، وتجاربه الرشيدة، وقام ببث روح الأمل والجهاد فى نفوس المسلمين. وعلى طريقـة الأفغانى وأسلوبه استطاع إقبال الذى ولد بعد وفاة الأفغانى بأربعة وعشرين عاما، أن يفتح الأذهان إلى البحـث والتفكير، وإلى الاستنتاج والاستنباط، وإلى توسيع الأفق العلمى، والتحرر من الحذر والتردد الذى كـان مسيطرا علـى أذهـان بعـض الطوائف فى الهند. وقد بسط ذلك فى كتابه "تجديد التفكير الدينـى فـى الإسـلام" كما عبر عن ذلك وصوره فى شعره باللغة الفارسية.

إقبال يسير سير الأفغانى فى إيقاظ الشعوب الإسلامية:

كان السيد جمال الدين الأفغانى من ألد الأعداء للاستعمار الغربى، وقـد بـذل جهودا كبيرة للنهوض بالأمم الإسلامية، وإيقاظها من الركود، فقد جـاب البـلاد، وشاهد العباد، بل والأمم والشعوب، وتحمل الجفاء والطرد، ومع هـذا أخـذ علـى عاتقه تنبيه الأذهان إلى أخطار الاستعمار الغربـى، خطـب وتحـدث بجرأة مدهشـة ليبصر المسلمين بحقائق الأمور، وكان يلقى فى ذلك الحكمة لمـن يريدهـا، ولمـن لا يريدها، فكان لهذه الخطب والأحاديث، ولتلـك الجـولات أثرهـا فـى تنبيـه أذهـان الشعوب.

وحركة الجامعة الإسلامية من أهم الحركات السياسية التى ظهرت فى العالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر، والتى كان لها أكبر الأثر فى تطور الوعى السياسى ونموه، وفى ازدياد اليقظة الدينية وتطورها فى مختلف أرجاء العالم، ومن هنا اعتبرها المستعمرون من أشد الوسائل خطرا على مصالحهم الاستعمارية، والقضاء عليها فى الشرق. واعتبرتها المسيحية خطرا داهما على الحركات التبشرية فى البلاد الإسلامية والسيد الأفغانى هو صاحب الفضل فى ظهور هذه الحركة الإسلامية التى تدعو إلى الوحدة بين الشعوب الإسلامية. فقد استطاع جمال الدين الأفغانى أن يقوم بدعاية عالمية على مستوى الدول كلها شرقا وغربا، وكان من نتائجها إيقاظ الشعور الدينى والسياسى بالوحدة الإسلامية، وتقويته إلى الحد الذى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البعث الإسلامى كله. وهكذا كانت آراء السيد الأفغانى عاملا مهما فى ظهور الآراء الحرة بين الشعوب الإسلامية التى غرس فيها روح التفكير السياسى، وحب الحرية، وكان لغرسه هذا أكبر الأثر فى نهضة العالم الإسلامى الدينية والسياسية والأدبية والعلمية.

كذلك كانت دعوة محمد إقبال الإسلامية، ولتأسيس دولة ووطن خاص بالمسلمين فى الهند خطرا على الإنجليز، وعلى غير المسلمين فيها على السواء. كانت دعوة إقبال خطرا داهما على الحركات التبشيرية والاستعمارية، والهندوسية والإلحادية فى البلاد الهندية.

وبالإضافة إلى ما مر كان جمال الدين الأفغانى رحمه الله صاحب ذكاء نادر، وقريحة نافذة، وقدرة فائقة فى تحليل المعانى والحقائق العلمية التى تتمشى مع العقل السليم، يشترك معه فى ذلك شاعر الإسلام محمد إقبال فى محاضراته وخطبه. وكانت دروس الأفغانى ومحاضراته وخطبه تتميز بسعة الأفق، والتحرر من قيود

التقليد، والجمود. كان عظيم المنزلة فى العلوم والمعارف، واسع الإطلاع فى العلوم النقلية والعقلية. إنه بحق فيلسوف الشرق، وخطيبه، وقطب من أقطاب الفلسفة، وركن من أركان السياسة، كل مجالسه، وحلقات درسه تتحول إلى مجالس العلم، والمعرفة، وإلى مدارسة الدين، ومذاكرة الأدب، ومناقشة مشا ل المسلمين وقضاياهم الملحة. "وبالجملة فإن ما أتاه الله من قوة الذهن، وسعة ا نل، ونفوذ البصيرة، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء"[1] كذلك كان إقبال تتحو مجالسه إلى اجتماعات لمدارسة أحوال المسلمين فى الهند.

كان جمال الدين الأفغانى يغضب أشد الغضب لتحالف رجال الد ن الرسميين مع الطغاة من الحكام، وكان الغضب الشديد يستحوذ على قلبه لتـ الف بعض العلماء والحكام الشرقيين مع المستعمرين الغربيين، وهم "يفعلو ما يأمر به الغربى... ويغالطون أنفسهم أنها حالات وقتية، أو سحابة صيف عن قريب تقشع"[2] إن أفكار هؤلاء الناس قصيرة النظر. كثيرة الضرر من الواجـ ب الوقوف فى طريقها، والقضاء عليها فى مهدها، لأنهم "اختاروا موالاة الأ نبى عنهم المخالف فى الدين والجنس، ولجئوا للاستنصار به، وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم"[3].

كذلك نرى الفيلسوف الشاعر محمد إقبال يسخر من النفاق الاجتماعى والنفاق الدينى، وهو يقول فى بعض شعره ما معناه: إن بعض قادة الروحيين

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٤٢

(٢) المرجع السابق ٨١

(٣) العروة الوثقى ١١٠، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

وصلوا إلى مكانتهم فى المجتمع بفضل البياض فى شعر رءوسهم، قلوبهم لا أثر فيها للإيمان با لله، ولكنها عامرة بأصنام الشهوات، حمانا ا لله من قوم يتخذون الدين تجارة. يجوبون البلاد ليلا ونهارا، ولا يستجيبون لطلب أصحاب الحاجات. إنهم ينظرون، ولكنه .لا يبصرون الحقائق، فى قلوبهم فقر، وصدورهم خالية من الحكمة، ويقول لى قصيدة له بعنوان الملا والسماء: ليست الجنة مكانا للمتزمتين والمتجرين بالد ، هؤلاء الناس طبيعتهم الخناق والجدال والقيل والقال.

كانت د ة جمال الدين ذات مظهرين أحدهما دينى، والآخر سياسى، فتعاليمه الدينيا ثارت بعثا دينيا فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى حيث إنها تدعو بإلحاح شديد الرجوع بالدين إلى أصوله الأولى، وإحياء ما فيها من المواريث والنواميس وا سس والأفكار، والاستفادة مما يصلح للمسلمين من علوم الغرب مع التمسك بأها ب الدين الإسلامى. وفى الجانب السياسى جعل العالم الإسلامى كله ميدانا لن اطه، ودعوته إلى إيقاظ الشعوب الإسلامية، وتقوية الروابط بينها، واتحادها فى كلمة الجامعة، واتفاقها فى النهوض به.. "إن من درنه إلى بشاور دولا إسلامي متصلة الأراضى، متحدة العقيدة، يجمعهم القرآن، لا ينقص عددهم عن خمسين يونا، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة، أليس لهم أن يتفقوا على ب والإقدام، كما اتفق عليه سائر الأمم، ولو اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم الاتفاق من أصول دينهم... أليس لكل واحد أن ينظر إلى أخيه بما حكم الله ا قوله ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب"[1] وبالإضافة إلى ذلك فقد أبدى

---

(١) المرجع السابق ١١٢

الأفغانى اهتمامه البالغ بالتجديد فى الدين. وقد وقف حياته لتحقيق هذه الأهداف الغالية والآمال الإسلامية المقدسة، ولرغبتــه الشـديدة فقـد ازدرى مطـالب البـدن، وانصرف عن لذات الحس، فانصرف عن الزواج، وظل يتنقل من بلد إســلامى إلى بلد إسلامى آخر هائجا، ثائرا، مخاطرا بمتع الحياة. مبلغا رسـالته الإسـلامية إلى مـن يريدها ويرغب فيهـا، وإلى مـن لا يريدهـا ولا يرغـب فيهـا، وبـالأخص إلى طبقـة المثقفين.

الأفغانى يحاور اللاهورى:

يقول لسان حال فيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى فـى الحـوار الـذى دار بين روحه الطاهرة وبين شاعر الإسلام محمد إقبال اللاهورى فى رحلته الخيالية فى الأفلاك بمصاحبة الشيخ جلال الدين البلخى الشهير بالرومى:

ألديـك حـظ مـن العلـم بحديـث المصطفـى؟ ﷺ
بـأن الديـن الحـق قـد جـاء إلى الدنيـا غريبـا[1]
إننـى أتحـدث معـك عـن معنى هـذا الكـلام البكـر
بأن غربة الدين ليست فى فقر (نـدرة) أهـل الذكـر
لأجل ذلك فإن الشخص صاحب النظـرة الفاحصـة
ينظـر إلى أن غربـة الديــن مــن نــوادر آياتــه
إن غربــة الديــن تتنــوع فــى كــل زمــان
فأدرك هذه النكتة الدقيقـة إن كنـت صـاحب نظـر

---

(١) غريب: إشارة إلى الحديث الشريف: الإسلام جاء غريبا...

قيد قلبك بإحكام بالآيات البينات مرة أخرى
لكي تتمكن من إمساك العصر الجديد في الشبكة
لا يعرف أحد شيئا عن أسرار الكتاب
الشرقيون و كذلك الغربيون في التواء واضطراب
إن الروس قد طرحوا نقشا ورسما جديدا
ربحوا فيه الماء والخبز، وخسروا الدين
أبصر الحق، وقل الحق، ولا تبحث عن غير الحق
إنهما كلمتان أبلغهما عني إلى ذلك الشعب [1]

فهذه الأفكار التي يصورها إقبال في شعره الإسلامي الرصين، وكذلك في نثره الإسلامي المتين تدل دلالة قاطعة على تأثير فكر فيلسوف الإسلام الأفغاني في أفكار شاعر الإسلام محمد إقبال، وفي منهج حياته الفكرية بصفة عامة.

إقبال شديد الإعجاب بالأفغان وزعمائهم المصلحين:

لا أرى زعيما أو شاعرا صوفيا في العصر الحديث تناوله شاعر الإسلام محمد إقبال في شعره ونثره بكثير من الفخار، وبمزيد من التجليل والتبجيل مثل ما تناول هذا الزعيم جمال الدين الأفغاني، ومثل ما تناول قبله وبالدرجة الأولى مواطنه مولانا جلال الدين البلخي الشهير بالرومي، فإذا كان هذا الأخير مرشده في عالم التصوف الروحي، وتأثر به وبأفكاره في عالم الأرواح، فإن جمال الدين الأفغاني إمامه وإمام غيره من الزعماء في عالم الفكر والإصلاح وفي الدعوة إلى نهضة

---

(١) كليات إقبال ٦٦٥ – ٦٦٦

العالم الإسلامى ووحدته. ومن المعروف أن إقبالا كثير الإعجاب بزعماء الأفغان وملوكهم وبالشخصيات البارزة منهم فى ميدان الفكر، كما أنه شديد الإعجاب بالشعب الأفغانى المسلم وما يتجلى فيه من صفات الشجاعة الموروثة، ومآثر الرجولة الكامنة، إلا أنه أكثر إعجابا بجلال الدين البلخى (الرومى) فى الفكر الإسلامى الصوفى، وبجمال الدين الأفغانى فى الفكر الإسلامى السياسى عامة، والإصلاحى بصفة خاصة..

إن آسيا هيكل من الماء والطين
الشعب الأفغانى قلب فى ذلك الهيكل
من فساده ينشأ فساد آسيا كلها
وفى سروره سرور آسيا وسعادتها
ما دام القلب حرا فإن البدن حر أيضا
وإلا فإن البدن تبن فى الطريق تذروه الرياح [1]

أين بلغ الأفغانى من التأثير القوى فى المسلمين عامة، وفى زعمائهم خاصة، وفى شاعر الإسلام بالأخص؟

إنه فتح عيون الناس على الخطر، ونبه الأذهان إلى الشر، وجعل من دعوته نقطة تحول عظيم فى حياة المسلمين، ووجه الأفكار والعقول والأفهام، ولعل أهم ما أجدى به الأفغانى هم أولئك التلاميذ والمريدون الذين طبعهم بالطابع الإسلامى بتلقين دروسه، وإلقاء خطبه ومحاضراته، فكانوا دعاة مخلصين لدعوته الإصلاحية فى المجتمعات الإسلامية. ونحن لسنا فى مقام الإسهاب والتفصيل، ولكنها إلمامة

(١) كليات إقبال ٧٦٥ - ٧٦٦

عارضة أوردناها على قدر ما يتطلبه بيان الأثر الذى تركته دعوة جمال الدين الفكرية فى مختلف الطبقات، وكان لها أثرها فى توجيه الرأى السياسى والاجتماعى والأدبى فى العالم الإسلامى.

كان جمال الدين الأفغانى يدعو إلى التجديد فى الدين، وتطهيره من البدع، وفهمه فهما صحيحا يتلاءم مع روح العصر، وذلك لأهمية تأثيره العميق فى الفرد والمجتمع، وكانت دعوته الإصلاحية تقوم على منطق الدين والعقل معا. ومن هنا كان لدعوته أبلغ الأثر وأكبره فى نهضة الشعوب الإسلامية.. فقد استطاع أن يترك من ورائه مدرسة دينية وسياسية تأخذ بتعاليمه، وتعتمد على آرائه فى الدين والسياسة، وكانت آثارها، وما زالت قوية مؤثرة، ومعالمها واضحة جلية فى الدفاع عن الإسلام، وعن حقوق الشعوب فى الشرق الإسلامى.

وإذا قمنا بالمقارنة بين آراء كل من فيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى، وشاعر الإسلام محمد إقبال لوجدنا تأثير الأول فى الثانى واضحا وضوح الشمس، وبخاصة فى الأفكار الدينية والسياسية..

الدين وأثره فى إصلاح الشعوب وتوحيدها:

ومن تأثير الدين الإسلامى فى النفوس وإصلاحها يقول جمال الدين الأفغانى: إن المسلمين "لا يعتدون برابطة الشعوب، وعصبيات الأجناس، وإنما ينظرون إلى جامعة الدين، لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى، والفارسى يقبل سيادة العربى، والهندى يذعن لرئاسة الأفغانى، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض"(١).

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٢٧٢

ويقول فيما يوفره الدين من سعادة للشعوب والمجتمعات ولمن دان بالدين الإسلامى من الأفراد والجماعات: "فالقرآن وتعاليمه، ودين الإسلام ومن دان به والسيرة المحمدية ومن عمل واقتدى بها من الأصحاب، لو أمكن للناس أن يعملو بها، لتوفرت لديهم السعادة وأنواع الخير، ولخف عنهم كثير من الويل والشر"[1].

وفى تأثير الدين فى العقول، وفى التعليم والتلقين، وما يتركه من الأثر الراسخ فى الأفئدة، وفى سلطانه على الأفكار، يقول جمال الدين الأفغانى: "إن الدين وضع إلهى، و(هو) معلمه والداعى إليه البشر، تتلقاه العقول من المبشرين المنذرين، فهو مسكوب لمن يختصهم الله بالوحى، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب، ويرسخ فى الأفئدة، وتصبغ القلوب بعقائده... فله السلطة الأولى على الأفكار، وما يطاوعها من العزائم والإرادات، فهو سلطان الروح ومرشدها..."[2].

ويقول فى روع الدين وتأثيره البالغ فى الناس إن "الدين رادع عن رضا فى السر، والسلطان وازع فى الجهر بالقهر"[3].

فهذه العبارات والأقوال المأثورة التى ساقها جمال الدين الأفغانى عن أهمية الدين وتأثيره القوى المؤثر تدل على أن تأثير الدين فى الشعوب، والجماعات والأفراد أقوى من أى تأثير آخر.

---

(١) المرجع السابق ٩٩

(٢) المرجع السابق ٢٢٦ - ٢٢٧

(٣) المرجع السابق ٢٨٢

وقد تأثر محمد إقبال اللاهورى إلى درجة كبيرة بدعـوة جمـال الدين الأفغـانى بصفة عامة وفى تأثير الدين فى النفوس بصفة خاصة، فقد تمكن مـن أن يجمـع فـى شخصيته الفكرية والأدبية بين الدين والفكر والفـن، بالإضافـة إلى الفكـر الصوفـى فى إطاره الإسلامى. وهو فـى هـذا الفكـر الصوفـى متـأثر تـأثرا عميقـا بكـل مـن الشاعرين الشهيرين العظيمين مولانا جلال الدين البلخـى الشـهير بـالرومى، ومجـد الدين سنائى الغزنوى، وبغيرهما من الشعراء الأفغان الذين لهم ضلـع كبـير، وبـاع طويل فى التصوف الإسلامى، وأدبه الصوفى.

كان إقبال يؤمن إيمانا راسخا بأهمية الدين الإسلامى، وأثره الفعال فى توجيـه حياة الفرد والجماعة فى المجتمعات الإسلامية، وفى أهميـة هـذا المعنـى يقـول: "إن الدين فى أعلى صوره ليس أحكاما جامدة، ولا كهنوتية، ولا أذكارا، ولا يتيسر إلا بالدين تهيئة الإنسان لحمل العبء الثقيل الذى يحمله إياه تقدم العلوم فـى عصرنـا. والدين وحده يرد إليه الإيمان والثقة اللذين ييسران له اكتساب شـخصية فـى هـذه الدنيـا والاحتفـاظ بهـا فـى الآخـرة ... والحـق أن الديـن والعلـم علـى اختـلاف وسائلهما ينتهى إلى غاية واحدة، بل الدين أكثر من العلم اهتمامـا ببلـوغ الحقيقـة الكبرى"[1].

والدين الإسلامى دين مفتوح فى نظر شاعرنا الإسلامى محمد إقبـال، ليـس لـه حدود زمنية أو مكانية معينة، ومن هنا يمكنه أن يحرر بقوته الكامنة نفوس البشـرية

---

(١) رواد الوعـى الإنسـانى فـى الشـرق الإسـلامى ١٢٦، وتجـديد التفكـير الدينـى فـى الإسلام ٢١٧

من قيود الأجناس والألوان، ومن أغلال العصبيات الضيقة. وهو يدعو إلى إقرار الحرية، وتدعيم العدالة الاجتماعية، وتوطيد المحبة والأخوة بين بني البشر جميعا، وفي هذا الصدد نسمعه حيث يقول: "ليست غاية الإسلام محصورة في الواردات الذاتية التي تجعل المرء بمعزل عما حوله من الأشياء، وعمن حوله من الناس، بل بناء للتربية التي تجعل الفرد صالحا لأن يكون منه ومن غيره مجتمعا صالحا له أنظمته القديمة، فإن العصبيات التي تدعو إلى البغضاء والتنفير وضيعة مهينة، ليس لها في الإسلام وجود"[(١)].

وعلى كل حال فإن كلا منهما قطب من أقطاب الزعامة الدينية الإصلاحية في العصر الحديث، حاول وجاهد في سبيل إحياء التفكير الديني في قلوب المسلمين عن طريق العودة إلى القرآن الكريم والحديث الشريف، فاستطاع جمال الدين الأفغاني أن يحدث ثورة دينية في الشعوب الإسلامية قاطبة، بينما تمكن إقبال من إحداث ثورة إسلامية بين الشبيبة المسلمة في الهند، وقد مهد بذلك لظهور أكبر دولة إسلامية في شبه القارة الهندية الباكستانية.

الحضارة الغربية ونظرة كل من الزعيمين إليها:

إن الشعور الديني وتغلغله في نفس الأفغاني هو الذي جعله يرى أن المدنية الصحيحة هي المدنية القائمة على الدين والعلم والسلوك، وأن التقدم المادي الذي يتجلى في إنشاء المدن، والمصانع، والثروات، والتفنن في وسائل القتل والتدمير،

---

(١) رواد الفكر الإنساني في الشرق الإسلامي ١٢٨

كل ذلك لا يصح أن يسمى مدنية. بل هو وحشية أحط من وحشية الحيوان، فإن الرجل الذى يطاوع غريزة الحرب والعدوان ليس إنسانا متمدنا على الحقيقة[1].

ولهذه الأهمية الجذرية للدين رأينا معظم الفلاسفة الماديين فى الغرب الذين حاولوا زعزعة العقائد الدينية، ومحو سلطة الأديان، لم يجدوا مفرا من العودة إلى القول بضرورة الدين. ذلك لأنه لا توجد على وجه الأرض عاطفة أبعد غورا، وأشد تأثيرا، وأكثر بقاء فى حياة الفرد والمجتمع من العاطفة الدينية. والعاطفة الدينية عنصر جوهرى فى فطرة كل إنسان، لا يستطيع فساد الحياة الاجتماعية القضاء عليها[2]. وذلك لأن الحياة الروحية أسمى أنواع الحياة فى هذا الوجود.

وقد شاهد شاعر الإسلام محمد. إقبال صلة الشعوب الإسلامية، وتعلقها الشديد بفلسفة الغرب المادية، فبين لها حاجتها إلى الفلسفة الإسلامية الراقية، لاشتمالها على أسمى أنواع الحياة الروحية السامية، ودعا المسلمين إلى إعادة النظر فى الإسلام كله، وذلك على ضوء ما كشفه العلم، ولكن دون الانقطاع عن ماضى الإسلام. و"فى الحق أن خطة الدين وخطة العلم، على الرغم من تضمنهما مناهج مختلفة، واحدة فى غايتهما النهائية، فكلاهما يستهدف أقصى درجات الحقيقة"[3].

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٩٠-٩٥،ورواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى ٢٦

(٢) الدكتور محمود قاسم: جمال الدين الأفغانى - حياته وفلسفته ٢١٦، مكتبة الإنجلو المصرية سنة....؟

(٣) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ٢٢٤

ولئن كان إقبال من المعجبين بالحضارة الغربية، ولكنه لم يكن غافلا عن عيوبها حيث لم تستطع القضاء على كثير من المفاسد الاجتماعية، وفي نقد هذه الحضارة يقول:

بطالة وعرى وسكر وإفلاس

تلك هي فتوحات المدنية الغربية

قوم محرومون من الهداية السماوية

تقدمهم مقصور على الكهرباء والبخار(١)

وفى الحقيقة فإن كليهما حبر من أحبار العلم، وأنوار المعارف، ومن أقطاب الفلاسفة العقليين المسلمين الذين استطلعوا أسرار الحكمة المستترة وراء الشرائع والنواميس، وبينوا ما أودعه الله الخالق فى خليقته من المواهب العقلية، والمكتسبات الأدبية والفكرية، ونفثوا فى الناس روحانية إسلامية راقية.

الحرية الإنسانية والجبرية عند الأفغاني:

دافع الأفغانى عن حرية الأفعال التى يقوم بها الإنسان المسلم، وقد عارض فى ذلك من أنكرها من الجبرية والمعتزلة الذين يعتقدون أن الإنسان فى جميع أعماله وأفعاله وتصرفاته لا أثر فيه للاختيار. وقد أكد جمال الدين الأفغانى فى "الرد على الدهريين" أنه "لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى... يرى مذهب الجبر المحض، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة، بل كل هذه الطوائف المسلمة

---

(١) رواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى ١٤٠

يعتقدون أن لهم جزءا اختياريا في أعمالهم. يسمى "الكسب" وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى... وهو مورد التكليف الشرعى، وبه تتم الحكمة والعدل"[1].

ويضيف الأفغانى بالإضافة إلى قوله السابق، إيمانا منه بالقضاء والقدر، أن "الاعتقاد بالقضاء والقدر يؤيده الدليل القاطع، بل ترشد إليه الفطرة..."[2] ويصرح مؤكدا بأن "الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والإقدام، وخلق الشجاعة والبسالة، ويبعث على اقتحام المهالك... واحتمال المكاره... ويحليها بحلى الجود والسخاء، ويدعوها إلى الخروج من كل ما يعز عليها، بل يحملها على بذل الأرواح..."[3].

إن هذه العقيدة.. عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر التى تعد من أبرز أصول العقائد فى الإسلام، قد انقلبت حقيقه أمرها عند الغربيين، وفى نظر عدد من أذيالهم، وتابعيهم من المسلمين ذوى الأمهام السخيفة والأفكار البالية، والآراء الضعيفة، فنسبوا إليها تأخر الشعوب الإسلامية، وانحطاط أمرها فى الميادين العلمية، والمجالات الحضارية الحديثة.

والفيلسوف الشاعر محمد إقبال يحذو حذو الفيلسوف الإسلامى جمال الدين الأفغانى فى هذا الأصل من أصول العقائد الإسلامية. يقول إن الحرية الإنسانية قد

---

(١) العروة الوثقى ٩١ - ٩٢، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربى، بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م، وخاطرات جمال الدين الأفغانى ٢٣١ - ٢٥٠

(٢) العروة الوثقى ٩٢، وخاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٢٣١ - ٢٥٠

(٣) العروة الوثقى ٩٣، ورواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى ٣٠ - ٣٢

أكدتها تعاليم الإسلام السامية، ولكن الأعراض السيسية والمطامع الشخصية قد أشاعت بين المسلمين عامة جبرية مشئومة ألحقت بالجماعة الإسلامية أضرارا بالغة، وأخطارا كبيرة[1]. ومن أراد أن يتأكد من ذلك فعليه أن يراجع "مقالات إقبال"[2] في مباحثه الخاصة بالتصوف، و"تجديد التفكير الديني في الإسلام"[3] والمباحث الخاصة بذلك سيجد هناك في مقالاته وأبحاثه قبسات نورانية من مذهب جمال الدين الأفغاني، وبوجه خاص في قضية القضاء والقدر.. تلك القضية الأساسية التي كانت أحد أسباب اندفاع المسلمين الأوائل إلى فتح الممالك والأقطار في عصرهم الأول.

من قول إقبال في حرية الإنسان:

بسلسلة القضاء ربطت رجلاً
وفي سعة العوالم ضقت حالاً
فقم، إن كنت في ريب، وأقدم
تجد للرجل في الدنيا مجالاً[4]

(١) رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي ١٢١

(٢) مجلة "ميثاق خون" عدد برج الحوت ١٣٧٠هـ ش.

(٣) تجديد التفكير الديني في الإسلام ٢٢٤، ترجمة عباس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥م.

(٤) عبدالوهاب عزام: محمد إقبال ١٧٧

فكرة الوحدة الإسلامية عند الأفغاني وتأثيرها في إقبال:

كان الأفغاني رائدا للحركة الإسلامية التي ترمي إلى تحقيق الوحدة بين الشعوب الإسلامية التي كانت جريمة كبرى في نظر الغربيين والمتغربين والعلمانيين وغيرهم من الملحدين أعداء المسلمين، لأن الأفغاني قد "رأى ألا منقذ للعالم الإسلامي إلا باتحاده في جامعة إسلامية داخل إطار خلافة تجعل الدين والدولة شيئا واحدا، وتسير على نهج الخلفاء الراشدين"(١).

كان الأفغاني رائدا لحركة الأممية الإسلامية التي تتحد فيها الدول الإسلامية لدفع الهجوم عليها، وطرد الاستعمار الغربي منها. وذلك بعد أن وجد أن من أكبر عوامل ضعف هذه الدول الإسلامية "انقسام أهلها، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاختلاف"(٢).

وقد تأثر الفيلسوف المسلم محمد إقبال بهذه الفكرة للأفغاني، وردده كثيرا في كتاباته، وبخاصة في ديوانه "جاويد نامه = رسالة الخلود" وأثناء مكوثه في غزنه عاصمة الدولة الغزنوية في أفغانستان، وزيارته لضريح أحمد شاه بابا الدراني في مدينة قندهار، وفي سياحته الروحية، والجولة الخيالية التي مر فيها بمنازل كثيرة، التقى فيها بقادة الفكر الإسلامي، وعلى رأسهم السيد جمال الدين الأفغاني(٣).

---

(١) الدكتور محمد عمارة: جمال الدين الأفغاني المفترى عليه ١٦٦

(٢) الدكتور عبدالباسط محمد حسن: جمال الدين الأفغاني وأثره في العالم الإسلامي ٨٣، ورواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي ٣٥ - ٣٦

(٣) في ديوانه "جاويد نامه" قصة هذه الرحلة. راجع كليات إقبال ٦٤٧ - ٦٧١

والشاعر محمد إقبال من الزعماء المسلمين الذين نادوا باتحاد المسلمين فى الهند وطالب فى سنة ١٩٣٠هـ بتأسيس دولة لهم يستطيعون أن يظهروا فيها روعة الإسلام، وشوكته، ووحدة المسلمين فى شبه القارة الهندية. ومن أشهر قصائده الشعرية التى كرر فيها فكرة الجامعة الإسلامية لجمال الدين الأفغانى قصيدة "البلاد الإسلامية" التى أنشدها عام ١٩١٠م. فى هذه القصيدة رد على الوطنية الضيقة، ودعوة إلى الجامعة الإسلامية(١).

فلاح المسلمين فى العودة إلى القرآن والسنة:

كان الأفغانى يؤمن إيمانا لا يتزعزع بأن فلاح المسلمين فى العودة إلى القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة من جديد، حتى يتمكن العالم الإسلامى من استعادة ما كان له من مجد تليد، وقوة رهيبة، وما كان له من الوحدة والوقار، وهذا ما كان يرمى إليه الشاعر الإسلامى إقبال، ويدعو إليه بقوة وإصرار، وقد ناشد المسلمين، وطالبهم بالعودة إلى دينهم الإسلامى الذى يكمن فيه فلاحهم، وسعادتهم فى حياتهم الأولى وفى حياتهم الثانية. ومن هنا نرى الشيوعيين، والاشتراكيين، والعلمانيين وأذيالهم يوجهون إليهما سهامهم، ويتهمونهما بالرجعية.. كما يتهمون الحركة الإسلامية بأنها تنظر إلى الوراء، وترجع بالمسلمين إلى القرون الوسطى.

ومحمد إقبال يشعر بهذا الذى شعر به جمال الدين الأفغانى، ويتألم لذلك أشد التألم، ويبكى بكاء مزاجه الدمع والدم، وله شعر كثير يفيض بهذه الأنات من

---

(١) السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى: روائع إقبال٢٥، الطبعة الرابعة، كراجى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

الدموع والدماء، يقول فى بيت له؛ والكلام للشيخ أبو الحسن الندوى فى روائع إقبال: "لقد فقد المسلم لوعة القلب، وانطفأت نار الحياة فيه، فأصبح ركاما من تراب" ويقول: "... لم أر فى محيطك أيها المسلم لؤلؤة الحياة، قد بحثت عنها موجة موجة وتفقدتها صدفة صدفة" ومن الواضح أن فلسفة إقبال ذات طابع دينى، وهى مبنية على الأصول الإسلامية، وبعث الحياة والقوة فى المسلمين بالعودة إلى الدين، يقول فى نشيده الإسلامى:

فى ظل السيف ترينا ❁❁ وبنينا العز لدولتنا
علم الإسلام على الأيام ❁❁ شعار المجد لملتنا

الفيلسوف الأفغانى يلفت نظر المسلمين إلى أن العودة إلى الإسلام الدين القويم من أفضل وسائل نجاتهم مما هم فيه من التشتت والتفكك والتأخر، ويقول إن الإسلام هو الأساس الأول والأمثل لنهوضهم من رقدتهم التى طال أمدها، لأنه "دين قويم الأصول، محكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، مزك للنفوس، مطهر للقلوب"[(١)].

أثر الأفغانى فى العالم الإسلامى:

ترك جمال الدين الأفغانى أثرا عظيما فى نهضة العالم الإسلامى، وله فضل كبير فى حياة معظم الشعوب، والبلاد الإسلامية والشرقية بجوانبها الدينية والفكرية

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٢١٨

والأدبية والسياسية.. استطاع جمال الدين الأفغاني أن يؤثر تأثيرا كبيرا فـي البـلاد، والشعوب، والجماعات، وبخاصة في رجال السياسـة والعلـم والأدب والصحافـة. فمنهم من تأثر به بالمعاصرة والمجالسة، والمدارسة، ومنهم من تأثر بتعاليمه التي تـأثر بها شاعر الإسلام محمد إقبال، والتي كانت قد ملأت أرجاء العـالم الإسـلامي فـي أيامه، فاختـار السير فـي الاتجـاه الإسـلامي القويـم الـذي كـان يسـير فيـه السـيد الأفغاني. يبدو ذلك واضحا في مباحثه: العلم الوجداني (الإيمـان بـالغيب) والعلـم بالبرهان (العقل) والعشق ويعنـي بـه الحماسـة والرغبـة فـي العمـل، وأعلـى صـور العشق عنده هو خلق القيم، وإنشاء المثل العليـا، والسـعي إلى تحقيقهـا، والتمسـك بتعاليم القرآن الكريم. وفي حواره مع روح الأفغاني في رحلته الروحية الخيالية[١]، وفي غير ذلك من كتاباته، وكتبه المنظومة والمنثورة[٢].

وفلسفة إقبال تمجيد للإسـلام ومـآثره، وبعـث للحيـاة والقـوة فـي المسـلمين، وتبشير لهم بالمستقبل الزاهر إن هم ساروا في حيـاتهم علـى منهـج الإسـلام الـذي سار عليه جمال الدين الأفغاني في حياته. ومن هنـا نـراه ينـادي بـالتطوير والتغيـير كما ينادي به جمال الدين الأفغاني، واتخذ كل منهما هذه الآية الكريمة مسـلكا لـه ومنهجا في التغيير والتطوير، والآية هي ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغـيروا مـا بأنفسهم**﴾ يجب على أمم الشرق أن تتبين أن الحياة لا تستطيع أن تبدل مـا حولهـا حتى يوجد التبديل والتغيير في أعماق تلك الأمم، وأن عالما جديـدا لا يسـتطيع أن

---

(١) روائع إقبال ١٦٥

(٢) مجلة "ميثاق خون" برج الحوت ١٣٧٠هـ ش

يتخذ طريق وجوده الخارجى حتى يوجد قبل ذلك فى ضمائر الناس وعواطفهم الداخلية. هذا قانون الفطرة الثابت الذى أشار إليه القرآن الكريم فى الآية الكريمة السابقة..

كان كل من فيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى، وشاعر الإسلام محمد إقبال اللاهورى فى هم وغم دائمين، وحزن ووجع شديدين، وألم وقلق مستمرين مما آل إليه شأن المسلمين وأمرهم فى الفكر والعقل والوجدان، وفى العمل والعمران، وفى التقدم والتطور والحركة الدائبة التى تساهم فى خلق الحياة، وتنشيطها، وتطويرها. وقد حاول كل منهما أن يرى فى العالم أمة أو دولة إسلامية قوية تؤثر فى حياة المسلمين جميعا، ويمتد أثرها كذلك إلى الدول والشعوب الأخرى فى أقطار المعمورة. وأعتقد جازما أن تأسيس أكبر دولة إسلامية فى شبه القارة الهندية كانت نتيجة لهذا المزيج من الفكر الإسلامى المشترك لكل من الأفغانى المؤثر واللاهورى المتأثر، تلك الدولة الإسلامية الكبيرة التى تم فيها تحطيم أصنام الأجناس والألوان والشعوب والأفراد، وتذويبها تذويبا إسلاميا رائعا. ومن المعروف أن نظرتهما الإسلامية العميقة قائمة فى جوهرها وجذورها على أساس دينى أخلاقى، وروحى عقائدى عميق.

وشاهد كل منهما صلة المسلمين فى الشرق، وتعلقهم الشديد بفلسفة الغرب المادية، فبينا لهم حاجتهم إلى الفلسفة الإسلامية، وإلى الروح الشرقية، ووجها إليهم دعوتهما المخلصة إلى إعادة النظر فى الإسلام كله على ضوء ما كشفه العلم الحديث ولكن دون انقطاع عن الإسلام وماضيه العظيم، وفكره القويم، وفلسفته

السامية. قال جمال الدين الأفغاني: "العلم لا يعجز عن إحداث ما نظنه اليوم مستحيلا، وإبرازه مرئيا"(١) وقال: "العلم الصحيح نسب صحيح، بل وراثة لنبوة"(٢) و"العلم الحي في الصدر الحي"(٣) "إن الديانة الإسلامية، في الوقت الحاضر، هي بمثابة سفينة، ربانها محمد بن عبدالله، صلى الله عليه وسلم، وركاب هذه السفينة المقدسة، كافة المسلمين، خاصتهم وعامتهم. وفي وقتنا الحاضر أشرفت هذه السفينة على الغرق، في بحر السياسة العالمية، كما تعرضت لخطر الطوفان. ولعل الحوادث الدبلوماسية، والدسائس الدولية، تؤدى إلى إغراق هذه السفينة وتحطيمها، فما حيلة ركابها وهي مشرفة على الغرق؟ وما هو تدبيرهم؟ فهل يجب على ركاب السفينة أن يبذلوا جهدهم لحراستها وإنقاذها من الطوفان والغرق؟ أم يظلوا مختلفين فيما بينهم، متبعين أغراضهم الشخصية، وأهواءهم الذاتية؟!"(٤) قال محمد إقبال: "إنه جدير بالإكبار كل مسعى في العالم، ولا سيما في الشرق، يقصد إلى أن يرفع أنظار الأفراد والجماعات فوق الحدود الجغرافية، فيولد أو يجدد فيها سيرة إنسانية صحيحة"(٥) وقال: "وليس ببعيد ذلك اليوم الذى يكشف فيه كل من الدين والعلم اتفاقا متبادلا بينهما لم يكن حتى اليوم منتظرا"(٦).

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني ١٠٢

(٢) المرجع السابق ٢٧٦

(٣) المرجع السابق ٢٧٩

(٤) جمال الدين الأفغاني: الأعمال الكاملة ٢: ٦٨

(٥) رواد الوعى الإنساني في الشرق الإسلامي ١٢٥

(٦) تجديد التفكير الديني في الإسلام ٢

هذا الشعور المشترك بين الفيلسوف والشاعر العظيمين بحاجة المسلمين إلى الأخذ بالعلم الصحيح، والوحدة الإسلامية، وإنقاذ سفينة المسلمين من الغرق والطوفان، وإعادة النظر فى المذاهب الإسلامية، هو الذى أوحى أولا إلى الأفغانى، ثم إلى محمد إقبال أن يفكرا هذا التفكير الواسع العميق فى مصير الشعوب الإسلامية فى العالم، وأن يتناولا تلك الموضوعات والمسائل الخطيرة التى تناولاها فى آثارهما الباقية.. لعل إقبال قد شعر بالحاجة إلى مثل هذه النظرة الجديدة، ولكن الذى أدركها كل الإدراك هو جمال الدين الأفغانى الذى يليق به أن يكون أستاذا ومرشدا لجيل إقبال، والأجيال التى أتت بعده، لما أوتى من إدراك واسع يسرته له تجاربه فى الناس والأخلاق، وفى تاريخ المسلمين وثقافتهم.

العلم الصحيح والمعرفة:

إن "الذل وصحيح العلم ضدان"[1] لا يجتمعان، فقد "نهض الغرب بالعلم والعمل، وانحط الشرق بالجهل والكسل"[2] حتى "عم الجهل، وتفشى الجمود فى كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة، والقرآن برىء مما يقولون"[3]، وبالعلم يصل المسلم إلى كشف أسرار الكون "ولسوف يصل (الإنسان) بالعلم، وبإطلاق سراح العقل إلى تصديق تصوراته، فيرى ما كان من التصورات مستحيلا قد صار ممكنا"[4] و"إن العلم الصحيح الذى

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٢٧٥

(٢) المرجع السابق ٢٨١

(٣) المرجع السابق ١٠٠

(٤) الدكتور محمد عمارة: جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ٢٦٣، الطبعة الأولى، دار المستقبل العربى، القاهرة ١٩٨٤م.

يمكن للآدمى أن يصل إليه هو العلم الذى به ينتهى الإنسان عن الفساد فى الأرض وسفك الدماء"[1] إذ العلم كغيره من المنجزات إنما تقاس قيمته بما يقدم للإنسان والإنسانية من خدمات وفوائد، والسبيل إلى ذلك هو رقى الإنسان فى مجالات العلوم والمعارف التى يطرب لها قلب المؤمن، ويغتنى بها عقل المسلم، ويرتاح إليها الضمير الإسلامى. و"حياة الشرقيين بالعلم الصحيح موت لحكم الغرب... إذا فلابد من تمام اليقظة، والعمل بكمال الحكمة من الشرقيين للوصول إلى الغاية بدأب متواصل، وهم لا يفتر، وعزائم لا تكل"[2].

نظر جمال الدين الأفغانى فى مجال العلم والمعرفة إلى الحقائق العلمية دون الأشكال، وإلى الجواهر الأصيلة دون الأعراض، وإلى الأعماق الكلية دون السطح، وإلى اليقين المؤكد دون الشك، وإلى المنطق العملى دون المنطق النظرى، وإلى الزهد الحكيم دون الانغماس فى الحياة المادية، وإلى المعرفة الحقيقية دون القشور. الأمر الذى لم يكن من المتوقع تحققه فى المدارس الاستعمارية فى البلاد الإسلامية والشرقية عامة، فقال "... أغلقوا فى وجوههم (الصبيان) مدارس الحكومة، وافتحوا لهم أبواب المكاتب الأهلية، لأنه لو سلم برنامج دروس مدارس الحكومة من سموم تدس فى الدسم للوطن، لا تسلم من ضرر ما تشحنه فيها من علوم قد لا يحتاجها المتعلم فى عمله... ولكنها بلا ريب تترك التلميذ عليل الجسم، فيخرج عليل العقل... خياليا وهاما، نفورا من العمل..."[3] وتحقيقا لهذا الهدف دعا جمال

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ٩٤

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى ٨٧، والأعمال الكاملة ٢: ٣٢٤ - ٣٢٦

(٣) خاطرات جمال الدين الأفغانى ٨٧

الدين الأفغانى العقول إلى التحرر من قيود الجمود والخمول، والقلوب إلى التحرك والنشاط، والنفوس إلى التأجج، والشعوب إلى اليقظة والثورة. فأيقظ الشعوب الشرقية.. حتى تقف من العلم الصحيح موقف المكبر له، والقادر على تحصيله ونقده، وأن تقوم الفكر الإسلامى فى نور هذا العلم الصحيح.

ويقول الأفغانى للمسلمين: إن ما نحتاجه من الغرب ليس الفلسفة، وإنما العلوم الطبيعية وتطبيقاتها، أما الفلسفة والثقافة والإلهيات والإنسانيات، فسبيلنا إليها هو الإسلام وتراثه الثقافى والحضارى.[1] ويمضى فى محاضرة له فيقول: "إن أبا العلم وأمه هو الدليل، والدليل ليس أرسطو بالذات، ولا جاليليو بالذات، والحقيقة تلتمس حيث يوجد الدليل، وأولئك الذين يحرمون العلم والمعرفة، معتقدين بذلك أنهم يصونون الدين الإسلامى، هم فى الواقع أعداء ذلك الدين. إن الدين الإسلامى هو أقرب الأديان إلى العلم والمعرفة، وليس هناك أى تعارض بين العلم والمعرفة وبين أسس العقيدة الإسلامية"[2].

هذا الشعور العلمى الملح الذى أبداه جمال الدين الأفغانى بشأن حاجة المسلمين إلى العلم الصحيح، وإعادة النظر فى المناهج التعليمية، هو الذى أوحى إلى محمد إقبال أن ينظر فى نظام التعليم الحديث فى ظل الاستعمار فى الهند، فرأى فيه مواضع ضعف وجوانب نقص، فانتقدها بشجاعة: "لقد خرجت من المدرسة حزينا لم أجد فيها الحياة، ولا الحب، ولا الحكمة، ولا البصيرة" قال: "أما رجال

---

(١) الدكتور محمد عمارة: جمال الدين الأفغانى المفترى عليه ١٠٧

(٢) المصدر السابق ١٠٧

المدرسة ففاقدو البصيرة، وميتو الذوق، وأما شيوخ الزاوية فقاصرو الهمة، ضعيفو الطلب، قليلو البضاعة"[1].

ومن رأى محمد إقبال كما كان من رأى جمال الدين الأفغانى أن التعليم فى المدارس الاستعمارية قد جنى على الأجيال الإسلامية جناية عظيمة إذ اعتنى بتثقيف لسان جيله، ولم يعن بتثقيف قلبه، وتهذيب نفسه، وقد وصف هذا الجيل وصفا دقيقا حيث يقول: "إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين، مصقول الوجه، مظلم الروح، كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس، لم يشاهد فى العالم شيئا"[2] كما قال قبله السيد جمال الدين الأفغانى فى ذلك: "... ولكنها (المدارس الحكومية) بلا ريب تترك التلميذ عليل الجسم، فيخرج عليل العقل، أليفا للنظر فى الكتب، خياليا وهاما، نفورا من العمل، جامدا فيما تعلم، بليدا فى كل ما يحاوله من العمل... ... كل على أهله، يكثر به وبأمثاله العدد، ولا ينتفع بهم أحد"[3].

ولاهتمامه البالغ بإصلاح التعليم ونشر العلم الصحيح بين الشعوب الإسلامية لبى دعوة الملك الأفغانى محمد نادر شاه خان بمصاحبة كل من العالم الفاضل الشيخ سليمان الندوى، والسير راس مسعود للتشاور فى المناهج التعليمية فى أفغانستان، فوصلوا إلى كابل سنة ١٩٣٣م، وقاموا بأداء مهمتهم العلمية خير قيام.

---

(١) روائع إقبال ٥٤

(٢) المصدر السابق ٥٥

(٣) خاطرات جمال الدين الأفغانى ٨٧ – ٨٨

والحكومة الأفغانية هي التي أمرت ببناء ضريحه في لاهور، اعترافا من الشعب الأفغاني المسلم بفضل الرجل وعلمه وأدبه[1].

نفحات الأفغان في شعر إقبال:

كان شاعر الإسلام محمد إقبال كثير الإعجاب بالأفغان وبشجاعتهم، وآدابهم الإسلامية وهو يردد ذلك في شعره ترديدا لا ينقطع، وهو يعبر عن إعجابه الشديد بالشاعر الصوفي مولانا جلال الدين البلخي (الرومي) والشاعر الوجداني الإسلامي أبوالمجد مجدود الحكيم السنائي الغزنوي، وابن سينا الطبيب، ونور الدين عبدالرحمن الجامي، والإمام فخر الدين الرازي، ومحمد بن يوسف الفاريابي، والشاعر خوش حال خان ختك، والسيد جمال الدين الأفغاني، ومحراب كل الأفغاني وغيرهم. ومن الملوك محمود الغزنوي، والإمبراطور شير شاه سوري (الغوري)، والإمبراطور أحمد شاه الأبدالي (الدراني) والملك أمان الله خان، والملك محمد نادر شاه خان، وغيرهم من الزعماء الأفغان، وذلك لتفانيهم في خدمة الإسلام وحبهم للحرية[2].

يعتبر محمد إقبال الحكيم السنائي الغزنوي من أساتذته الروحيين في التصوف والشعر والحكمة، وقد زار قبره في غزنه أثناء زيارته لأفغانستان، ففاضت قريحته الشعرية بإنشاد منظومة رائعة سماها "مسافرا" بث فيها أشواقه القلبية، وآماله الروحية، وآلامه الإسلامية، ونظر فيها إلى العالم المعاصر كحكيم شاعر، ومؤمن

---

(١) عزام: محمد إقبال ٣٦ و ١٣٨ ورواد الفكر الإنساني في ١١٨، وروائع إقبال ١٣٧

(٢) راجع ص٢٤-٢٥ من هذا البحث.

ثائر، وأنشدها إحياء لهذه الزيارة وتذكارا.. سجل فيها ما جال بفكره، وجاش فى قلبه، وهو يزور قبور كل من السلطان محمود الغزنوى، والحكيم السنائى فى غزنه، وأحمد شاه بابا الدرانى فى كندهار. وخاطب فيها القبائل الأفغانية، وأبدى إعجابه الشديد بشجاعة الأفغان وحبهم للحرية، وتمسكهم بحبل الدين، ودفاعهم عن الإسلام.

وفى "جاويد نامه = رسالة الخلود" قصة رحلة روحية، قام بها الشاعر فى الأفلاك فيها زهاء ألفى بيت من شعره الجيد الناضج، ودليله فيها جلال الدين البلخى (الرومى) صاحب المثنوى المشهور، وقد مر فيها بمنازل كثيرة، التقى فيها كثيرا من الشخصيات التاريخية، من أصحاب الديانات، والفلسفات، والأدبيات، ومن رجالات الفكر والقيادة، فيقابل فى فلك القمر السيد جمال الدين الأفغانى، وسعيد حليم باشا التركى، وفيما وراء الأفلاك رأى أحمد شاه الأبدالى من أفغانستان، ونادر شاه من خراسان، وغيرهم من الصلحاء والأولياء.

حوار بين الأفغانى واللاهورى فى فلك القمر:

وفى فلك القمر أقبل إلى شيخه البلخى وقد قرع أذنه صوت أذان، فقال: أسمع أذانا ولا أرى إنسانا، فهل أنا واهم أم حالم؟ فقال البلخى (الرومى): إنه منزل الصالحين والأتقياء، يزوره العارفون بالله، وأصحاب المقامات والأبرار، فلنسرع لندرك الصلاة فى هذا المنزل المبارك.. فوجدا رجلين يصليان أحدهما من الأفغان والآخر من الأتراك، ونظرا فيهما، فإذا الإمام فى الصلاة جمال الدين الأفغانى يصلى خلفه سعيد حليم باشا وهو يقرأ سورة "النجم" فأنشأ هدوء المكان والزمان، وشخصية الإمام، وجمال القرآن جوا خاشعا رهيبا، رق فيه القلب

وفاضت فيه العين؛ وكانت قراءة لو سمعها إبراهيم الخليل، وجبرائيل (عليهما السلام) لأعجبا بها ولأثنيا عليها، وكانت قراءته تذيب القلوب، وتقلق النفوس، وتثير صيحة التكبير والتهليل فى القبور، وكانت قراءة ترفع الحجاب، وتزيله، وتتضح بها معانى أم الكتاب، والمحكمات من القرآن.

يقول إقبال: قمت بعد الصلاة، وقبلت يديه بأدب، وقدمنى مرشدى الرومى (البلخى) إلى الأفغانى، وقال: إنه جوال فى الآفاق، ويحمل فى قلبه عالما من الآمال، لم يخضع لأحد، ويعيش حرا طليقا. وأقبل علىّ السيد الأفغانى، وقال: حدثنى يا عزيزى عن العالم، وعن المسلمين الذين أصلهم من تراب، وينظرون بنور الله، قلت: لقد رأيت فى ضمير الأمة التى خلقت لتسخير العالم، معركة حامية بين الدين والوطن، لقد ضعف الإيمان فى قلب هذه الأمة، وقطعت الأمل من سيطرة الدين وسيادته، فلجأت إلى الوطنية والقومية، أصبح الأتراك والإيرانيون سكارى بصهباء الغرب، ونشوته، وصاروا فريسة كيدها. أصبحوا خرابا بحكم الغرب وسيادته وذهبت الشيوعية ببهجة الدين، وبهاء الملة[1].

يزيل إقبال النقاب عن الفتن التى تثيرها القومية، والرأسمالية، والشيوعية التى تشتبك معها الشعوب الإسلامية فى صراع دام مستمر. ويسمع الأفغانى كل ذلك فى صبر، وتألم، ثم ينفجر قائلا: إن الأوربى هو الذى علم أهل الدين الوطنية والقومية، وهو الذى بذر فى الشرق وأهله بذور الخلاف والانشقاق... وقد صور إقبال هذا الحوار الذى دار بينه وبين السيد الأفغانى فى بعض شعره فى "جاويد نامه" حيث يقول على لسان جمال الدين الأفغانى:

---

(١) روائع إقبال ١٦٥ - ١٧٢، وراجع أيضا ص٢٤-٢٥ من هذا البحث.

إن النبيل الغربى من رأسه إلى قدميه مكر وخداع وتلون
فقد علم أهل الدين دروساً فى القومية والوطنية
إنه يبحث عن مركز تسلط له، وأنت تعيش فى نفاق وخلاف
فتحرر – أيها المسلم –عن القوميات الشامية والفلسطينية والعراقية
إن كانت لديك مقدرة على التمييز بين الجميل والقبيح
فلا تربط قلبك ونفسك بالتراب اليابس والحجارة واللبنة
إن الدين ما هو إلا القيام من سطح الأرض وحضيض التراب
حتى تعرف الروح الطاهرة نفسها، وتدرك ذاتها
إن الذى عرف "الله" حقا، وأدركه لا تسعه
حدود هذا العالم المنحصر فى الجهات الأربعة
إن الحشيش من التراب، وينبت على التراب (يفنى فيه)
ومن الظلم أن تموت الروح الطاهرة وتفنى فى التراب
إن آدم ولو أنه ظهر وخلق من ماء وطين
وبسط لونه ونضارته كالورد بالماء والطين
فمن الظلم أن يسقط فى هذا الماء والطين دائماً
ومن الظلم ألا يطير فى الأجواء الفسيحة العالية
جسمه يأمره أن يميل إلى الأرض
وروحه تأمره بالنظر والطيران فى الأجواء الفسيحة
إن الروح لا تنحصر فى الجهات أيها الحكيم
إن الإنسان الحر لا يعرف القيود والحدود

إن الحـر إذا حبـس فـى الـتراب (الوطـن) ثـار واضطـرب
لأن الصقـور لا تعمـل فـى الأوكـار كـالفئران
إن تلـك الحفنـة مـن الـتراب، التـى تسـمى وطنـا
وتطلـق عليهـا أسمـاء مصـر وإيـران واليمـن
إن للوطـن مـع أهـل الوطـن نسـبة نسـب
لأن هـذه الشـعوب قـد نهضـت مـن أرضهـا ولمعـت فيهـا
ولكنك إن كنت من أصحاب النظر، فإن فى هـذه النسـبة
سترى نكتة أدق من الشعر (أى لا ينبغى أن تنحصر فى حدودها)
فالشـمس وإن كـانت تخـرج وتشـرق مـن الشـرق
وتطلـع بسـنائها ونورهـا الجـرئ بـلا حجـاب
ولكنها تستمر فى اضطراب وغضب مـن حـرارة بداخلها
حتـى تتحـرر مـن حـدود الشـرق والغـرب وقيودهمـا
تطلـع مـن مشـرقها بجلـوة ثملـة سـكرى
ثـم تسـيطر علـى العـالم كلـه وتحتضنـه
إن فطرتهـا بريئـة مـن الشـرق والغـرب
وإن كـان مولدهـا ونسـبة ظهورهـا مـن الشـرق[1]

نعم، فـى شعر إقبال نفحات تأثرية عميقة بالجهاد البطولى الـذى خاضه السلطان محمود الغزنوى لإعلاء كلمة الحق، ونشرها فى ربوع العالم، كما أن فى شعره نفحات مؤثرة قوية من اللوعة الصوفية للشيخ جلال الدين البلخى (الرومى)

---

(١) كليات إقبال ٦٥١، وروائع إقبال ١٦٥ - ١٧٢

التى تتموج بها دواوينه الشعرية، وحكمة الشاعر الوجدانى السنائى الغزنوى الذى يعتبره إقبال أستاذا له فى التصوف بعد جلال الدين. وتأثره بالفكر الإسلامى الحى لجمال الدين الأفغانى ليس فى حاجة إلى إقامة البراهين والحجج الإيضاحية.. إلا أن ذلك لا يمنع من أن أقوم بإلقاء بعض الضوء على بعض الجوانب الفكرية الأفغانية التى كان لها تأثير فى تكوين عقلية الشاعر العظيم محمد إقبال..

أثر المثنوى فى شعر إقبال:

تأثير المثنوى المعنوى لجلال الدين البلخى (الرومى) فى عقلية محمد إقبال وتوجيه رسالته الإسلامية معروف حيث إنه، من المعروف للجميع أن الشيخ البلخى ثم الرومى قد كتب مثنويته المعروفة فى ظروف ثورية وجدانية ضد الموجة العقلية الإغريقية التى اجتاحت عالمنا الإسلامى فى عصره، وهذا الكتاب يزخر بالفنون والمعانى الإسلامية الجديدة، ويتدفق بالحكم والأمثال، بعيدا عن المباحث الكلامية، والقشور الفلسفية، وفيه حوار مع الروح والعاطفة والقلب. وكان العالم الإسلامى فى عصر محمد إقبال يواجه التيار العقلى المادى الغربى الذى جرف جميع القيم الإسلامية والمبادئ الخلقية والمعانى الروحية. وكان محمد إقبال يعيش فى صراع شديد بين عقله المتمرد وعلمه المتجرد، وقد ساعدته فى هذا الصراع الفكرى والاضطراب النفسى مثنوية جلال الدين مساعدة قوية، حيث حل بها كثيرا من الألغاز والعقد فى الحياة. ولم يزل محمد إقبال يذكر الكتاب وصاحبه بتقدير وتبجيل، وباحترام وتعظيم فى كثير من أبيات شعره، وينسب إليه كثيرا من الحقائق والحكم والنكت والقيم الإسلامية. يقول فى بيت يخاطب فيه أحد المؤمنين بسحر الحضارة الغربية:

"قد سحر عقلك سحر الإفرنج، فليس لك دواء إلا لوعة قلب الرومى (البلخى) وحرارة إيمانه. لقد استنار بصرى بنوره، ووسع صدرى بحرا من العلوم"[١].

هذه وغيرها من الآثار والنفحات الطيبة التى بقيت حية خالدة فى نفس محمد إقبال الطيبة، وظهرت بارزة جلية فى شعره، وفى بقية آثاره العلمية والأدبية والفكرية.. فى عقيدته الشامخة الراسخة، وإيمانه القوى الصامد، وخلقه المستقيم المتزن، وتفكيره السليم الوضاء، وعقله الناضج الموجه لرسالته الوجدانية، وفى طبعه الريان الذى أملى عليه شعره فى منظوماته الفريدة فى الآداب الإسلامية.. والتى أنشدها فى كل من كابل وغزنه وكندهار (قندهار) وفى رحلته الروحية مع جلال الدين البلخى وجمال الدين الأفغانى.

ويستمر إقبال فى إنشاده على لسان جمال الدين الأفغانى الذى يخاطبه قائلا: إن مصدر الشيوعية ذلك اليهودى الذى خلط الحق بالباطل، وآمن قلبه وكفر عقله. إن الغربيين فقدوا القيم الروحية، وذهبوا يبحثون عن الروح فى المعدة. إن قوة الروح ليست من الجسم، ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا بالمعدة والبطن،وديانة الماركس مبنية على مساواة البطون، إن الأخوة لا تقوم على وحدة الأجسام والبطون، إنما تقوم علىمحبة القلوب، وألفة النفوس[٢].

ويستمر جمال الدين فى تحليل مؤامرات وفتن الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية والنظم الأخرى المخالفةللإسلام وتعاليمه السامية،ويقول إن هذه النظم كلها تكفر

---

(١) راوائع إقبال ٥٢ - ٥٣

(٢) المصدر السابق ١٦٨ - ١٦٩

بالله،وتخدع الناس،وتثير الفساد...نسمع إقبالاحيث يصوركل ذلك فى شعره على لسان جمال الدين الأفغانى بعنوان الاشتراكيةوالملوكية:

إن صاحب "رأسمالية "[1] من نسل الخليل
إنه ذلك الرسول الذى لا يأتيه جبريل
وبما أن حقه وباطله خفى مضمر
فإن قلبه مؤمن وعقله كافر
إن الغربيين قد فقدوا القيم العلوية
وذهبوا يبحثون عن الروح الطاهرة فى المعدة
إن الروح الطاهرة لا تستمد حياتها من الجسم
ولكن الشيوعية لا شأن لها إلا بالجسم
وديانة "ماركس" الجاهل الذى لا يعرف الحق
مبنية على المساواة بين البطون
إن مقام الأخوة داخل القلب
جذورها فى القلب وليست فى التراب [2]

ثم يواصل السيد جمال الدين الأفغانى حديثه فى حواره مع شاعر الإسلام محمد إقبال حول هذه الموضوعات الإسلامية الهامة.. خلافة آدم فى الأرض، والحكومة الإلهية، الأرض ملك لله، الحكمة خير كثير. ويدعو إلى إقامة دولة

---

(١) صاحب "الرأسمالية" يعنى به كارل ماركس الذى ألف كتابا باسم"الرأسمالية" ضمنه أصول الاشتراكية.

(٢) كليات إقبال ٦٥٢ - ٦٥٣

القرآن، لأنه ليس بكتاب سماوى مقدس فحسب، بل إنه بالإضافة إلى ذلك دستور يدخل القلب، ويسيطر على أوتاره، إنه إذا دخل فى القلب تغير الإنسان وتطور، وإذا تغير الإنسان وتطور تغير العالم وتطور، ونظر إلى الكون بنور القرآن، ذلك الكتاب الحى الخالد الناطق الذى جاء لإسعاد البشرية.. لإسعاد الشعوب والأمم، ولإسعاد المجتمعات والجماعات والأفراد. وأما الشيوعية والرأسمالية كفرعين من دوحة المادية الملحدة إحداهما شرقية والأخرى غربية، فليس فى إمكانهما ذلك..

تلك كانت بعضا من المشاهد الأفغانية، والمناظر الإسلامية التى تأثر بها شاعر الإسلام محمد إقبال، وأحدثت فيه ثورة فكرية، وقوة عظيمة، وجد فيها الحياة لقلبه، والنشاط لفكره، وحركت فيه شاعريته الفذة، وهاجت قريحته، وتحرك الحب الدفين للحبيب، وقد حلت الأمة الأفغانية المسلمة فى قلبه محل ذلك الحبيب، وتطلع إلى كابل، وغزنه، وكندهار، معاقل الإسلام، ومصادر الثورات والبطولات، فانطلق يشيد بفضل الأفغانى، وعقله، ويستعرض ما كان للسنائى، والبلخى، والغزنوى، والدرانى، والسورى (الغورى) من الفضل فى التصوف والحكمة والإرشاد، وفى الجهاد والدفاع، وفى العلم والفكر، وفى المعرفة والثقافة.. فكانت لنا من تلك المشاهد والمناظر واللقاءات الروحية هذه القصائد الغراء التى تزخر بها دواوينه الشعرية، وبخاصة "جاويد نامه" ومنظومة "مسافر" الخالدة.

الجهاد ضد المادة والماديين:

كانت حركة الإلحاد فى الشرق الإسلامى فى عصر جمال الدين الأفغانى صدى للمذهب المادى فى الغرب. وقد انتشرت فى الهند على نطاق واسع، حيث

ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم، فما رزئت بهم أمة، ولا منى بشرهم جيل إلا انتكث فتله، وسقط عرشه، وتبددت آحاد الأمة، وفقدت قوام وجودها"[1].

ويقول إن "الدين قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سعادتها، وعليه مدارها؛ والنيشرية جرثومة الفساد، وأومة الإداد، وخراب البلاد، وبها هلاك العباد"[2].

"وأول ركن بنى عليه الدين الإسلامى صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بالله، متفرد بتصريف الأكوان، متوحد فى خلق الفواعل والأفعال"[3].

لم يكن شاعر الإسلام محمد إقبال ببعيد عما يقوله فيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى عن المادية والماديين، وعن آثارها المدمرة، حيث يقول: إن "الرجل العصرى بما له من فلسفات نقدية، وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطة، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه. لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو... ... وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية، هى ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه"[4] ويقول فى محاضرة له بعنوان "البرهان الفلسفى على ظهور التجربة الدينية: " أما الدين فيهدف إلى اتصال بالحقيقة أقرب وأوثق، فالفلسفة نظريات، أما الدين فتجربة حية، ومشاركة واتصال وثيق. وينبغى على المفكر لكى يحقق هذا الاتصال أن يسمو فوق ذاته. وأن يجد كما له فى حال من أحوال العقل

---

(١) جمال الدين الأفغانى: الرد على الدهريين ٢٩ - ٣٠، مكتبة السلام العالمية، القاهرة، عام ؟

(٢) المصدر السابق ١٥

(٣) المصدر السابق ٩٦ - ٩٧

(٤) روائع إقبال ٧١ - ٧٢

كان الماديون يظهرون أحيانا بدعوى العمل لتطهير الأذهان من الخرافات، وتنوير العقول بالمعلومات العلمية الحقيقية، وتارات يتقمصون ثياب محبى الفقراء، وحماة الضعفاء، وأحيانا يتظاهرون بالحكمة والوقوف على الأسرار العميقة فى الكون، وفى الحياة الاجتماعية، لقد كانت تلك هى سبيلهم فى التدرج بالناس إلى إنكار الدين.. وبالتالى إلى إنكار الذات الإلهية. ولكن الحقيقة كما يقول جمال الدين الأفغانى هى أن المذاهب المادية الإلحادية ما ظهرت فى أمة من الأمم، أو فى بلد من البلدان إلا وكانت صاعقة لثمارها، وكارثة تهدد بناءها لأنها تميت القلوب، وتنفث السموم فى الأرواح، تقتل النفوس، وتقوض النظم، وتفرق بين الجماعات والطوائف والأفراد، وتزعزع الأحوال، وتبدد القبائل والشعوب.

وقد أشهر جمال الدين سيف قلمه ضد هؤلاء الدهريين المضللين الذين يدعون إلى طرح الأديان، وكشف عن عيوب هذه المدرسة الإلحادية، وأخطارها المدمرة، وذلك لشدة تدينه، وأخلاقياته الإسلامية، وقال: إن المادية وآثارها المدمرة عدو جميع الأديان وبخاصة الإسلام، وعدها من الفتن الكبرى فى عصره. ومن كلامه عن المادة والماديين فى رسالة الرد على الدهريين أنهم "كانوا يظهرون فى أوقات بدعوى السعى فى تطهير الأذهان من الخرافات، وتنوير العقول بحقائق المعلومات، وتارات يتمثلون فى صور محبى الفقراء، وحماة الضعفاء، وطلاب خير المساكين، وكثيرا ما تجرءوا على دعوى النبوة، ولكن لا على سنن سائر المتنبئين الكذبة، كل ذلك توسلا لإجراء مقاصدهم، وترويج مفاسدهم..

وكيفما ظهر الماديون، وفى أية صورة تمثلوا، وبين أى قوم تجمعوا، كانوا صدمة شديدة على بناء قومهم، وصاعقة مجتاحة لثمار أممهم، وصدعا متفاقما فى بنية جيلهم. يميتون القلوب الحية بأقوالهم، وينفثون السم فى الأرواح بآرائهم،

يسميها الدين الصلاة، والصلاة لفظ من آخر ما انفرجت عنه شفتا نبى الإسلام عند وفاته"[1].

مقام العقل عند الأفغانى:

كان جمال الدين الأفغانى مصلحا إسلاميا عظيما، ونصيرا حقيقيا قويا للعقل، وكان يهيب بكافة الشعوب الإسلامية، ويدعوها إلى الاستفادة من هذا المبدأ العقلى الذى امتاز به الإسلام دون غيره من سائر الأديان والشرائع، والملل والنحل والمذاهب، وهو يقرر رأيه فى ذلك بوضوح وصراحة ليس فى حاجة إلى تعقيب أو إيضاح ويقول: "إن الدين الإسلامى يكاد يكون منفردا من بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل، وتوبيخ المتبعين للظنون، وتبكيت الخابطين فى عشواء العماية، والقدح فى سيرتهم. هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم، وكلما خاطب خاطب العقل، وكلما حاكم حاكم العقل.. تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل، والبصيرة... وقلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقارنه فى هذه المزية"[2].

وفى مقام العقل وعمله، وفى خضوع العالم لمقامه يقول فيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى: إن "العقل أشرف مخلوق، فهو عالم الصنع والإبداع، ولا

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ٧٤

(٢) الرد على الدهريين ١٠٢، وأحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ٧٨، وجمال الدين الأفغانى: الأعمال الكاملة ١: ١٣٥، ورواد الوعى الإنسانى فى الشرق الإسلامى ٢٩

معطل لـه إلا الوهـم، ولا يقعده عـن عمله إلا الجبن، وهـو الـذى يخيـل المفقـود موجودا، والقريب بعيدا. كل عناصر الوجود فى هذا العالم الفانى خاضعـة للعقـل المطلق الإنسانى. فكل مستحيل اليوم فى الطب والصناعة سـوف يكـون ممكنـا"[1] ويضيف إلى ذلك قوله: "إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، ولسـوف يتجلـى بعقله إلى تصديـق تصوراتـه، فـيرى مـا كـان مـن التصـورات مستحيلا قـد صـار ممكنا"[2].

لا شـك فـى أن السـيد جمـال الديـن الأفغـانى كـان مسـلما ذا فكـر مسـتنير، وصاحب مواهب عقلية نادرة، كان يهيب بجميع الشعوب والمجتمعـات والطوائـف الإسلامية وفرقها المختلفة أن تتحد ضد عدوهـا المشـترك وفقـا لمـا يتطلبـه العقـل، ويدعو إليه الفكر، ويقتضيه المنطق، وهذا المبدأ العقلى، والدعوة الفكريـة والمنطقيـة من المزايا الفطرية الطيبة التى تتميز بها الشريعة الإسلامية دون غيرها من الشـرائع، لذلك نراه يقول: "إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف فى وجوه الأنفس، وكشف لها عن غايته، وأثبت لكل نفس صريح الحق فـى أى فضيلـة، وأنبـأ كـل ذى نطـق بوفرة استعداده لأى منزل من منازل الكرامة... وقرر المزايـا البشـرية علـى قـاعدة الكمال العقلى والنفسى لا غير، فالناس إنما يتفـاضلون بـالعقل والفضيلـة، وقـد لا نجد من الأديان ما يجمع أطراف هذه القاعدة"[3].

---

(١) الدكتور محمود قاسم: جمال الدين الأفغانى.. حياته وفلسفته ١٠١

(٢) الدكتور محمد عمارة: جمال الدين الأفغانى موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام ٢٦٣

(٣) الرد على الدهريين ٩٨ - ٩٩

ومقام العقل وسلطانه عند الأفغانى أكبر من أن يقف عند حد، وهو يؤمن بأن الله سيوفق عقل الإنسان إلى استجلاء ما خفى من أسرار هذه الطبيعة التى خلقها لأجل الإنسان لينتفع بها ويستثمرها، ويتخذها منطلقا للوصول إلى خالقها ومبدعها. وهذا الموقف لجمال الدين الأفغانى نابع من إيمانه القوى بالعقل الذى وضعه الله وأبدعه فى الإنسان، وسخر له تلك القدرات الفكرية والعقلية، والإمكانيات الهائلة التى لا توجد فى غيره من الكائنات. وهذا هو المعنى الحقيقى لثورة جمال الدين الأفغانى العقلية والعلمية الأصلية التى ثارها على الجمود والخمول والتقليد، وعلى الذبول والفتور.

ومحمد إقبال الذى يعتبر بحق أنبغ عقل قدمته الثقافة الحديثة إلى العالم الإسلامى، وأعمق مفكر إسلامى أوجده الشرق الإسلامى فى العصر الحديث، أعتقد جازما أنه مفكر أنطقه الله بالحكم والحقائق والأفكار الإسلامية، أنطقه كما أنطق الحكماء والمفكرين قبله من أمثال الشيخ محمد عبده، والسيد عبدالله نديم، والسيد عبدالرحمن الكواكبى، والسيد محمد رشيد رضا، والشيخ عبدالقادر المغربى، وإبراهيم المويلحى، والشيخ على يوسف، وإبراهيم اللقانى، ومحمد باشا المخزومى الذين تأثروا بفلسفة جمال الدين الأفغانى الفكرية، وظهرت فيهم وفيمن أتى بعدهم آثاره الفكرية بوضوح، وجاشت فى خواطرهم، وامتزجت بأفكارهم، واستقرت فى قلوبهم، واشتد إيمانهم برسالة الأفغانى، فسخروا مواهبهم وعواطفهم، وحماستهم الإسلامية، وشجاعتهم الفكرية لنشرها بين الناس، لتقف صامدة فى طريق الردة الفكرية، والهجمة العقلية، والانحراف عن جادة القيم الخلقية. وكلهم من ثمار مدرسة جمال الدين الأفغانى العلمية، إن الفضل فى خلود هؤلاء العلماء والقادة والأدباء، وخلود آثارهم ونفوذها فى العقول والقلوب يرجع

إلى هذه المدرسة التى تخرجوا منها.. لأنها مدرسة ما خاب من تعلم فيها، وما ضاع من تخرج منها، إن مدرسة جمال الدين الأفغانى لم تخرّج إلا أئمة الفكر، وقادة الإصلاح، وأساتذة السياسة، والدعاة إلى الحرية والاستقلال.

الاجتهاد فى نظر الزعيم الأفغانى والشاعر اللاهورى:

كان الأفغانى يكره التقليد، وينفر منه، وينعى على المقلدين إتباعهم لنظريات غيرهم دون تمحيص أو تدقيق، فكان رحمه الله يأخذ بالأحسن من الأقوال والآراء، ويرد الضعيف منها، ويتناول الأقرب للصواب الذى يقبله عقل المسلم، كما كان يستنكر قول بعض العلماء من المتأخرين من أن باب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر الوفاء بشروطه الصعبة التى وضعوها، وقيدوه بها بحيث يكاد يستحيل توافرها فى فرد واحد من أفراد الأمة. عند سماعه لمثل هذه الأقوال يشتد غضبه، ويقول: "ما معنى باب الاجتهاد مسدود، وبأى نص سد؟"[1] ومن أقواله المأثورة فى هذا الباب: إن "القرآن ما أنزل إلا ليفهم، ولكى يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه، وفهم أحكامه، والمراد منها. فمن كان عالما باللسان العربى، وعاقلا غير مجنون، وعارفا بسيرة السلف، وما كان من طرق الإجماع... جاز له النظر فى أحكام القرآن، وتمعنها، والتدقيق فيها، واستنباط الأحكام منها، ومن صحيح الحديث، والقياس"[2] ويقول أيضا "إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا،

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ١١١، وزعماء الإصلاح فى العصر الحديث ١١٤

(٢) خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ١١١-١١٢،وروواد الفكر الإنسانى فى الشرق الإسلامى ٢٩

ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة من بحر، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده"[1] وقد خرج الأفغاني بذلك على من قال بإقفال باب الاجتهاد، كما خرج من قبله ابن تيمية على من قال بإغلاق بابه أيضا. وقد لقيت تعاليم ابن تيمية خير معين لها في حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في القرن الثامن عشر الميلادى.

هذا ما كان من رأى فيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني في موضوع الاجتهاد في الفقه الإسلامى، وهو رأى حر نفاذ يطرد الكسل العقلى الذى ران على الأذهان فى بعض فترات التاريخ الإسلامى. وإلى هذا الرأى السديد ينظر رأى شاعر الإسلام محمد إقبال الذى يعبر عنه فى محاضرة له بعنوان "مبدأ الحركة فى بناء الإسلام"[2] والحركة فى الإسلام هى الاجتهاد فى نظره. وقد رفض محمد إقبال أثناء حديثه القيم عن تاريخ هذه الحركة الفقهية، فكرة الحجر على الاجتهاد، وإغلاق بابه، وبقائه مسدودا أمام العقل الإسلامى، وهو يسير فى ذلك على المنهج الفكرى للأفغانى الذى يقول بحرية الاجتهاد، ويدعو إليه بإلحاح. وكلاهما يرحبان بتحرير الفكر والعقل فى الإسلام فى عصره الحديث لينطلق فى الاجتهاد فى الأصول الإسلامية.. "إننا نرحب من أعماق قلوبنا بتحرير الفكر فى الإسلام الحديث، ولكن ينبغى لنا أن نقرر أيضا أن لحظة ظهور الأفكار الحرة فى

---

(١) خاطرات جمال الدين الأفغانى ١١١ - ١١٢، وزعماء الإصلاح فى العصر الحديث ١١٤

(٢) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ١٦٨ - ٢٠٨

الإسلام... قد ينتهى أمرها إلى القضاء على النظرة الإنسانية العامة الشاملة التى تشربتها نفوس المسلمين من دين الإسلام"[1].

والفيلسوف الشاعر محمد إقبال يثنى ثناءا عاطرا على ابن تيمية الذى كانت تعاليمه رد فعل قوى للميل إلى المبالغة فى احترام الماضى دون تمحيص، وقد أعطى لنفسه حق الاجتهاد، وثار على من يحرمونه من العلماء، ونهج فى ذلك منهج ابن حزم. وفى القرن السادس عشر الميلادى نادى الإمام السيوطى بأن له حق الاجتهاد، وزاد على ذلك قوله بظهور إمام مصلح فى مستهل كل قرن من الزمان. ويعتبر إقبال حركة محمد بن عبدالوهاب التى تصر فى قوة على القول بالاجتهاد، مصدر الإلهام لمعظم الحركات الإسلامية الحديثة فى آسيا وإفريقيا. وهى فى الحق أول نبضات الحياة فى الإسلام الجديد فى القرن الثامن عشر الميلادى. وقد أضاف حليم ثابت نظرية اجتهادية جديدة إلى التفكير الدينى والسياسى لدى الأتراك. ووصل سعيد حليم باشا زعيم حزب الإصلاح الدينى التركى إلى القول بحق الاجتهاد رغبة فى إقامة الشريعة من جديد على ضوء الفكر والخبرة فى العصر الحديث[2].

ولكن "علماء الإسلام... يقولون بتقليد مذاهب الفقه المشهورة، وإن كانوا لم يجدوا قط أن من الممكن، من الوجهة النظرية، إنكار حق الاجتهاد المطلق... ولكن بما أن الأحوال قد تغيرت... ... فإنى لا أرى موجبا لاستمرار التمسك

---

(١) المصدر السابق ١٨٧

(٢) المصدر السابق ١٧٥ - ١٧٩

بهذا الرأى. وهل ادعى أصحاب مذاهبنا الفقهية أنفسهم أن تفسيرهم للأمور، واستنباطهم للأحكام هو آخر كلمة تقال فيها؟ إنهم لم يزعموا هذا أبدا"[1].

نضيف إلى كل ذلك رأيا أو مبدأ فقهيا آخر، وهو "القياس الذى أخذ به الأحناف ، كان مرادفا للاجتهاد، وهو حق طليق فى حدود النصوص المنزلة، ويبدو ما له خطر وشأن... فى أن معظم الفقهاء... يرون القول بأنه أجيز حتى فى حياة النبى إغلاق باب الاجتهاد، إنما هو محض اختلاق أوحى به تبلور التفكير التشريعى فى الإسلام من جهة، كما أوحى به من جهة أخرى الكسل العقلى الذى يجعل كبار المفكرين فى مصاف الآلهة وبخاصة فى عهد الانحلال الروحانى. وإذا كان بعض العلماء فى العصور الأخيرة قد استمسكوا بهذا الاختلاق، فالإسلام الحديث ليس ملزما بهذا التنازل الاختيارى عن الاستقلال العقلى"[2] وفيما يأتى رأيه الصريح فى الاجتهاد: "والحركة فى الجماعة الإسلامية بالاجتهاد. ويؤسفنا أن هذا الأصل الذى يهب الأمة الحياة لم يعمل عمله فى المسلمين. إن من أقوى أسباب ضعف المسلمين إهمال هذا الأصل، أعنى إبطال الاجتهاد"[3].

إن تلك الموهبة العقلية العظيمة التى وهبها الله كلا من السيد جمال الدين الأفغانى ومحمد إقبال اللاهورى قد أسهمت إسهاما فعالا فى إيقاظ الشعور الدينى والعقلى فى المسلمين ودعتهم بقوة من الإيمان إلى الاستفادة من مبدأ الاجتهاد فى الإسلام.. إن أعظم ما فى موهبتهما العقلية - بالإضافة إلى ما مر - أنهما يعثان

(١) المصدر السابق ١٩٣

(٢) المصدر السابق ٢٠٥ - ٢٠٦

(٣) عزام: محمد إقبال ١٢١

فى المسلمين الطموح، وسمو النفس، وبعد النظر، والحرص الشديد على سيادة الإسلام، وتسخير هذا الكون وتعميره لصالحه. ومن أجل ذلك يغذيان الحركة الاجتهادية، والثورة العملية بجانب الحب والعاطفة. ويبعثان الإيمان بالله، والإيمان بخلود الرسالة المحمدية، وبعبقرية محمد السماوية الجليلة. وبالإضافة إلى ذلك فهما الأفغانى واللاهورى من أعظم الدعاة المخلصين إلى النزعة الإنسانية والجامعة الإسلامية وتحريك حركة الاجتهاد لتحقيق ذلك.

أثر فلسفة إقبال فى أفكار المسلمين:

يقول الدكتور عبدالوهاب عزام (رحمه الله) إنه قد تم تأليف زهاء أربعين كتابا باللغتين الأردية والإنجليزية فى سيرة إقبال وفلسفته وفكره الإسلامى، وفى المقارنة بين أفكاره وأفكار الآخرين، وفى بيان التشابه بين شعره، وشعر الآخرين. وذلك فى فترة قصيرة تقدر بخمس عشرة سنة بعد وفاته عام ١٩٣٨م، بالإضافة إلى مقالات وبحوث كثيرة مختلفة كتبت عنه ونشرت فى المجلات الأدبية والفكرية والتاريخية. وفى مدينة لاهور العاصمة العلمية والثقافية فى باكستان اليوم مجلة اسمها "إقبال" تقوم بنشر مقالات وتحقيقات خاصة بفلسفة إقبال وشعره وفكره. ولا تخلو مجلة أدبية أو تاريخية فى شبه القارة الهندية إلا وفيها مقال أو تحقيق أدبى أو تاريخى عن إقبال.. فكره، وشعره، ولمع من آرائه فى التجربة الدينية، أو فى الألوهية والبراهين الفلسفية، أو فى روح الثقافة الإسلامية، ومبدأ الحركة فى الإسلام، أو فى غيرها من المواضيع العلمية، والإسلامية، والوطنية، والتاريخية التى تناولها الشاعر المسلم إقبال فى آثاره الشعرية والنثرية.. "ولا يزال الباحثون يجدون

فى فلسفته وشعره ما يشغل أقلامهم، ويملأ صحفهم على كثرة ما كتبوا"[1] وذلك لأن إقبالا قد أمد عقل الإنسان وقلبه بزاد عظيم من العتق والعشق، ومن التدبر والتفكر، ومن الأمل والعمل، ومن الشعر والنثر ما يلبى رغبة كل من يريد الكتابة عنه وعن فكره. وفى لاهور العاصمة العلمية أكاديمية علمية تحمل اسم هذا الفيلسوف الشاعر محمد إقبال الخالد الذكر والفكر.

أثر إقبال فى إنشاء موطن للمسلمين فى شبه القارة الهندية:

إن ما نشاهده اليوم من وجود دولة إسلامية كبيرة على خريطة شبه القارة الهندية هو نتيجة لتلك الجهود الفكرية، والأفكار المبدعة لشاعر الإسلام محمد إقبال التى هى بلا شك استمرار بل امتداد لأفكار فيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغانى، تلك الأفكار الإسلامية المشتركة التى اتخذت شكلا فكريا منظما قام على قواعد إسلامية دقيقة، ونظريات فكرية سليمة، أثبتت الأيام صدقها وصوابها، والتى قدمت للمسلمين فى الهند خدمات جليلة عظيمة لعبت دورها فى مستقبلهم، والأمل المرتجى الذى تحقق بوجود باكستان على خريطة العالم. ولا أعتقد أن هناك أحدا يجادل فى قيمة الفكر، ودور المفكرين فى نهضة الأوطان والمواطنين. ودور المفكر المسلم فى الأمم والشعوب والأوطان والمواطنين دور ذو أهمية كبرى فى ذلك، ومما لا شك فيه أن كثيرا من الدول والأوطان الإسلامية نتيجة لتلك الجهود الفكرية التى بذلها المفكرون، وليست نتيجة جهود سياسية دعى إليها رجال السياسة وحدهم.. ومن المعروف أن طلائع العودة إلى الإسلام،

---

(١) المرجع السابق ١٢٣ - ١٢٤

وإلى مجده العظيم، والتضامن الإسلامى، وتوحيد الصف بين المسلمين وشعوبهم الإسلامية كانت قد أخذت فى البروز والظهور أيام السيد جمال الدين الأفغانى، واستمرت فى التطور البارز والفعال حتى أيام شاعر الإسلام محمد إقبال فكانت دولة باكستان إحدى أكبر وأنشط الدول الإسلامية فى هذا العالم.

إن كلا من السيد الأفغانى والشاعر اللاهورى مأثرة من المآثر الإسلامية جليلة القدر، عظيمة الشأن، تستحق من المسلمين كل تقدير وإعجاب، وشكر واعتراف، لما لها من الآثار الطيبة فى العالم الإسلامى، ولما لها من الفضائل وأوجه الإحسان على الشعوب الإسلامية.

أثر إقبال فى أقلام الكتاب والمفكرين:

لا يوجد فى العصر الحديث، وبخاصة فى العالم الإسلامى، شاعر إسلامى تناوله الباحثون والكتاب والمؤلفون بالدراسة والتحقيق، وبالمناقشة والتدقيق مثل ما تناولوا ودرسوا هذا الشاعر العظيم، والعبقرى المسلم.. فقد جاء فى مقال بمناسبة ذكرى إقبال المئوية فى مدينة لاهور سنة ١٩٧٧م أن عدد ما صدر عن إقبال فى لغات مختلفة، قد بلغ ألفين (٢٠٠٠) ما بين كتاب ورسالة، ما عدا البحوث والمقالات، وما ألقى من أحاديث ومحاضرات وخطب[1] إن دل هذا على شىء فإنه يدل على اهتمام العالم وعلمائه ومفكريه بهذا الشاعر الإسلامى، والعبقرى المسلم.

---

(١) روائع إقبال ١ - ٢ من المقدمة

كان شعر إقبال وكذلك فكره مددا وأملا للمسلمين فى شبه القارة الهندية، يبعث فيهم النور والنار بالعمل والأمل، وبالتعاون والإقدام. وكان شعره بالفارسية والأردية أناشيد إسلامية يشدوها المسلمون فى الهند لإثارة الحماس والحمية والنخوة الإسلامية فى النفوس والقلوب والأقلام لإنشاء موطن خاص بهم، فكانت باكستان.

تأثر المسلمون بشعر محمد إقبال، وبخاصة الشباب منهم، يقول مولانا أسلم الجراجبورى: "قرأت الشعر بالعربية والفارسية والأردية، ولا حرج علىّ أن أقول: إن إقبالا أعظم شعراء المسلمين.. إن كلامه ليفيض بالحقائق الإسلامية، ولقد هدى ناشئتنا سواء السبيل. إن إقبالا حذق علوم الغرب، ثم أبلغ المسلمين الرسالة التى بصرتهم بحقيقة الإسلام وعظمته، وملأت قلوب الشباب الغافل النائم بحب الرسول والقرآن"(١).

أثر إقبال فى البلاد العربية:

وقد ظهر تأثير الفيلسوف الشاعر محمد إقبال لأول مرة فى مصر، فى أحد علمائها وأدبائها البارزين.. فى الدكتور الفاضل عبدالوهاب عزام رحمه الله الذى كان من شيعة إقبال، ومن أكبر المتحمسين لفكره وشعره، وهو أول من قام بتأليف كتاب عنه وعن فلسفته الإسلامية فى اللغة العربية، ترجم فيه درر منظومتى الأسرار والرموز، ورسالة المشرق، وضرب الكليم، وقليلا من درر "جاويد نامه = رسالة الخلود" وقد قام بذلك شعرا. وكان رحمه الله من أجدر الناس بهذا العمل

---

(١) عزام: محمد إقبال ٣٥

العلمى العظيم، وأقدرهم عليه لتمتعه بالجمع بين الثقافتين العربية والفارسية، ومن المنشئين البارزين البارعين فيهما، بالإضافة إلى إجادته اللغة الأردية. ولانسجامه الفكرى مع فلسفة إقبال وعقيدته فى التصوف، ولحبه للإسلام وثقافته وفكره. جزاه الله على إخلاصه ومثابرته وعلو همته فى الآداب الإسلامية.

ثم يليه فى ذلك أستاذ الجيل عباس محمود العقاد رحمه الله الذى قام بترجمة محاضراته الست، حيث نقلها من الإنجليزية إلى العربية باسم "تجديد التفكير الدينى فى الإسلام" وقد طبعتها ونشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر فى مصر سنة ١٩٥٥م.

أثر شاعر الإسلام فى الهند:

ثم يأتى على رأس قائمة المعجبين والمتأثرين بشعر إقبال، والمتحمسين له ولفكره الإسلامى العالم الفاضل، نابغة الهند فضيلة الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى – أطال الله بقاءه لخدمة العلم – صاحب "روائع إقبال" الذى تم طبعه خمس مرات حتى عام ١٩٧٨م، والذى تمت ترجمته إلى الأردية باسم "نقوش إقبال" وقد طبع عدة مرات أيضا. وقد قام الدكتور محمد آصف القدوانى بترجمته إلى الإنجليزية أيضا.

الخاتمة:

هذا ما وسعه الوقت، وأذنت به الشواغل – وما أكثرها – لاستعراض جوانب هامة من أثر فلسفة السيد جمال الدين الأفغانى فى أفكار شاعر الإسلام العظيم محمد إقبال اللاهورى، وفلسفته فى شعره ونثره، أقوم بتقديمه راجيا أن يأخذ مكانه

فى المكتبة العربية، وفى قلوب المثقفين والباحثين، عسى أن تتلوه بحوث فلسفية، ودراسات فكرية أخرى أوسع خيالا، وأعمق غورا فى قضية التأثير والتأثر، وفى موضوع المقارنات الأدبية والفكرية بين كل من المصلحين السيد جمال الدين الأفغانى، والشاعر محمد إقبال اللاهورى اللذين نشأ فى الشرق مهد الأديان، وحملا إلى الناس كافة، وإلى الشعوب الإسلامية خاصة الحياة والإصلاح، ومنهاج العمل والأمل لرجال الله فى الأرض.. الأول بقوة نثره وفكره، والثانى بقوة شعره وفكره، وكانا من أكثر القادة المصلحين خبرة بالمسلمين ومشاكلهم، ومن المعروفين بسعة الأفق والإطلاع.. كانت رسالتهما رسالة الإيقاظ والوعى الإسلامى، تدعو النفوس المسلمة المؤمنة إلى الجد والقوة، وإلى الثقة والاعتزاز، وتثير العقول والأفهام، ويستثير الهمم إلى الصعود وتحقيق الطموح، وطلب العلا مع الجمال والكمال فى بلاد الإسلام الزاخرة بالكرم، والزاهرة بالجمال والنضارة.

"عهد الدم - ميثاق خون" أثارت حماسى فكتبت هذه الدراسة:

حدث أن قدم إلى الدكتور محمد سرور البلخى مجلة "ميثاق خون = عهد الدم" التى تصدرها جميعة أفغانستان الإسلامية، وفيها مقال بعنوان "تأثير فلسفة السيد جمال الدين الأفغانى على العلامة إقبال اللاهورى" لعلمه بأننى من المتحمسين للأفغانى ولأمثاله من المصلحين، أنظر إلى أفكارهم الإسلامية بشىء كثير من التقدير والتقديس والاحترام. وقد نشرت عن الأفغانى النابغة كتابين.. أحدهما عن حياته، والآخر عن فلسفته الفكرية. وعند الأفغانى ما ليس عند غيره من العطاء الإسلامى الذى يعبر عما فى ضميرى ويصوره، وينسجم مع تفكيرى وينتظم، ويتناغم مع عاطفتى الإسلامية وشعورى الدينى؛ ولكننى لا أعتقد فيه

وفى غيره من المصلحين عصمة ولا قدسا، ولا أبالغ فى إجلاله والاستشهاد بأقواله وآرائه أكثر من أنه من الزعماء المخلصين وهب حياته وفكره لخدمة الرسالة الإسلامية، والمؤمنين بها. فقرأت المقال مرتين أو ثلاث مرات، ثم بدأت محاولة نقلها إلى العربية، فصادفتنى فى ذلك صعوبات..

أولا – كاتب المقال وهو الأستاذ غلام حسين ذو الفقار كتبه بالأردية، واعتمد على مراجع أردية مترجمة ومنقولة عن اللغة العربية، الأمر الذى لا إشكال فيه، ولكنه يمهد لخلق المشكلة.

ثانيا – قام المترجم وهو الأستاذ أمين الله الخراسانى بنقل المقال وترجمته إلى اللغة الدرية (الفارسية) دون أية إشارة إلى المرجع كتابا كان أو مجلة، لأتمكن من مراجعته، لتدارك بعض ما فيها من الإبهام أو التعقيد، سببها أخطاء مطبعية.

ثالثا – عند مراجعتى للنصوص العربية الأصلية فى مراجعها العربية لاحظت عدم الانسجام الكامل بينها وبين النصوص المترجمة. وهو أمر طبيعى لا غرابة فيه لمرور النصوص على مراحل عديدة.. بمعنى أن المراجع وما تشتمل عليه من النصوص كانت عربية أصلا نقلت إلى الأردية، ومن الأردية نقلت إلى الدرية (الفارسية) ومن الدرية أحاول نقلها أو ترجمتها إلى العربية.. اللغة الأم لهذه النصوص. ونظرا لهذه الصعوبات وغيرها بدأت التفكير فى كتابة دراسة جديدة حول هذا الموضوع الذى أثاره الكاتب الأستاذ ذو الفقار بدلا من ترجمة مقاله بحذافيره.. فكانت هذه الدراسة الموجزة التى تدور حول التأثر والتأثير بين الأفغانى واللاهورى.

ولقد كتبت هذه الدراسة الموجزة عن أثر الأفغانى الثائر فى إقبال اللاهورى الشاعر بلهفة العاشق المنصت إلى معشوقه، وبإحترام التلميذ لمقام أستاذه الجليل،

وبتواضع المريد فى حضور مرشده الوقور، وبإطاعة الجندى لأوامر قائده المظفر فى معاركه فى ميدان الجهاد؛ وإن لم يكن الأمر كذلك، فـإننى لم أكـن فـى يـوم مـن الأيام كاتبا مرموقا، أو باحثا يشار إليه بالبنان..

أحب الصالحين ولست منهم ❁❁ لعـل الله يرزقنـــى صلاحـــا



أهم المراجع والمصادر

المؤلف	اسم الكتاب
القرآن الكريم	
الأفغاني، جمال الدين	* الأعمال الكاملة، تحقيق الدكتور محمد عمارة، الموسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الجزء الأول ١٩٧٩م، والجزء الثاني ١٩٨١م. * الرد على الدهريين، ترجمة الإمام محمد عبده، مكتبة السلام العالمية، مطبعة التقدم، القاهرة...؟ * العروة الوثقى، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.
إقبال، محمد	* تجديد التفكير الديني في الإسلام، ترجمة عباس محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٥٥م. * كليات إقبال (فارسي) الطبعة الثانية، مطبعة غلام علي ببلشرز، لاهور ١٩٧٨م.
أمين، أحمد	* زعماء الإصلاح في العصر الحديث، مكتبة النهضة المصرية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م.
أمين، عثمان (دكتور)	* رواد الوعي الإنساني في الشرق الإسلامي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار القلم، القاهرة ١٩٦١م.
الجبلاوي، محمد طاهر	* جمال الدين الأفغاني (قصة مجاهد كبير) مكتبة الإنجلو المصرية، مطبعة مخيمر، القاهرة...؟

المؤلف	اسم الكتاب
جمعية أفغانستان الإسلامية	* مجلة ميثاق خون (عهد الدم) العدد ١٢ برج الحوت ١٣٧٠هـ ش الرقم المسلسل ٩٠
حسن، عبد الباسط محمد (دكتور)	* جمال الدين الأفغانى وأثره فى العالم الإسلامى الحديث، مكتبة وهبه، مطبعة التقدم، القاهرة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
سهيل، محمد إقبال	* إقبال والأمة الإسلامية، وحدة التعليم بسفارة جمهورية باكستان الإسلامية، الرياض جدة، سنة...؟ (ثلاث رسائل فى مجلد واحد بعنوان إقبال المفكر الإسلامى العملاق بمكتبة جامعة الملك عبدالعزيز، برقم ٩٢٨،٥٤٩ع.ب.د.ر)
صافى، محمد أمان (دكتور)	* جمال الدين الأفغانى بين الحقيقة والافتراء، دار شرف للطباعة والنشر، القاهرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م. * نفحات عن تاريخ السيد جمال الدين الأفغانى منقذ الشرق، مطابع الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة١٤١١هـ-١٩٩١م.
الطرازى، عبد الله مبشر (دكتور)	* المفكر الإسلامى العلامة الدكتور محمد إقبال، سفارة جمهورية باكستان الإسلامية، جدة ١٩٨٧م - ١٤٠٧هـ.
عبد الرحمن، خليل الرحمن (دكتور)	* العملاق بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز برقم ٩٢٨،٥٤٩ع.ب.د.ر)
عبد اللطيف، محمد فهمى	* جمال الدين الأفغانى والوحدة الإسلامية،دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية، وموسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت، سنة...؟

المؤلف	اسم الكتاب
عزام، عبدالوهاب (دكتور)	* محمد إقبال.. سيرته وفلسفته وشعره، مطبوعات باكستان، ... ...؟
الفضلي، عبدالهادي (دكتور)	* المسئولية الخلقية في فكر الدكتور محمد إقبال، وحدة التعليم بسفارة جمهورية باكستان الإسلامية، الرياض – جدة ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م (ثلاث رسائل في مجلد واحد بعنوان إقبال المفكر الإسلامي العملاق .بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز برقم ٩٢٨،٥٤٩ع.ب.د.ر)
قاسم، محمود (دكتور)	* جمال الدين الأفغاني.. حياته وفلسفته، مكتبة الإنجلو المصرية، مطبعة مخمير، القاهرة، سنة ...؟
الكيلاني، نجيب	* إقبال الشاعر الثائر، بيروت ١٣٩١هـ – ١٩٧١م.
المخزومي، محمد باشا	* خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني، الطبعة الثانية، دار الفكر الحديث، لبنان، مطابع دار الفكر بدمشق ١٩٦٥م – ١٣٨٥هـ.
الندوي، أبو الحسن علي الحسيني	* روائع إقبال، الطبعة الرابعة، مجلس نشريات إسلام، نويد برنتنك بريس، كراجي ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.



المحتويات

صدر للمؤلف

أفغانستان والأدب العربى عبر العصور

أفغانيات .. خواطر وإبداعات

الأدب ومذاهبه .. للدكتور محمد مندور (مترجم إلى الأفغانية)

سلسلة الدراسات الأدبية فى أفغانستان:

١- بست وسيستان وأهميتهما التاريخية والأدبية

٢- كونر أرض البطولات وأول الفتوحات

٣- نفحات عن تاريخ السيد جمال الدين الأفغانى منقذ الشرق

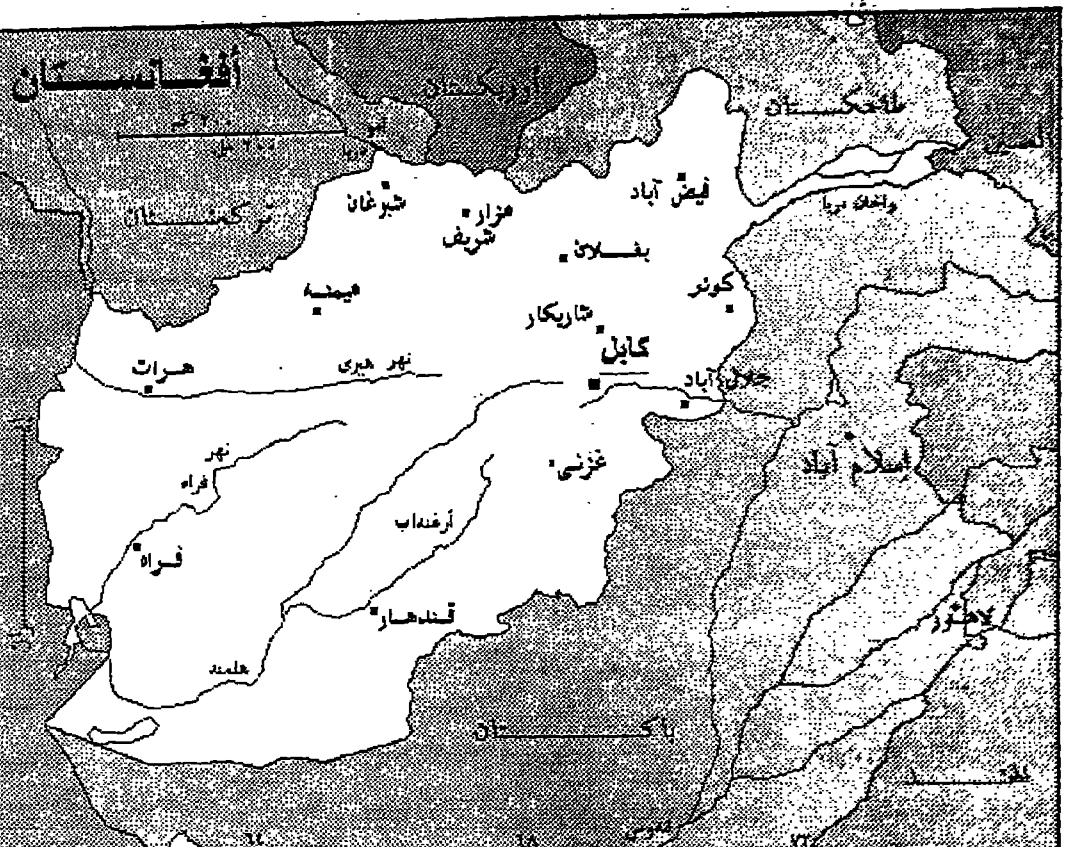
٤- السيد جمال الدين الأفغانى بين الحقيقة والإفتراء

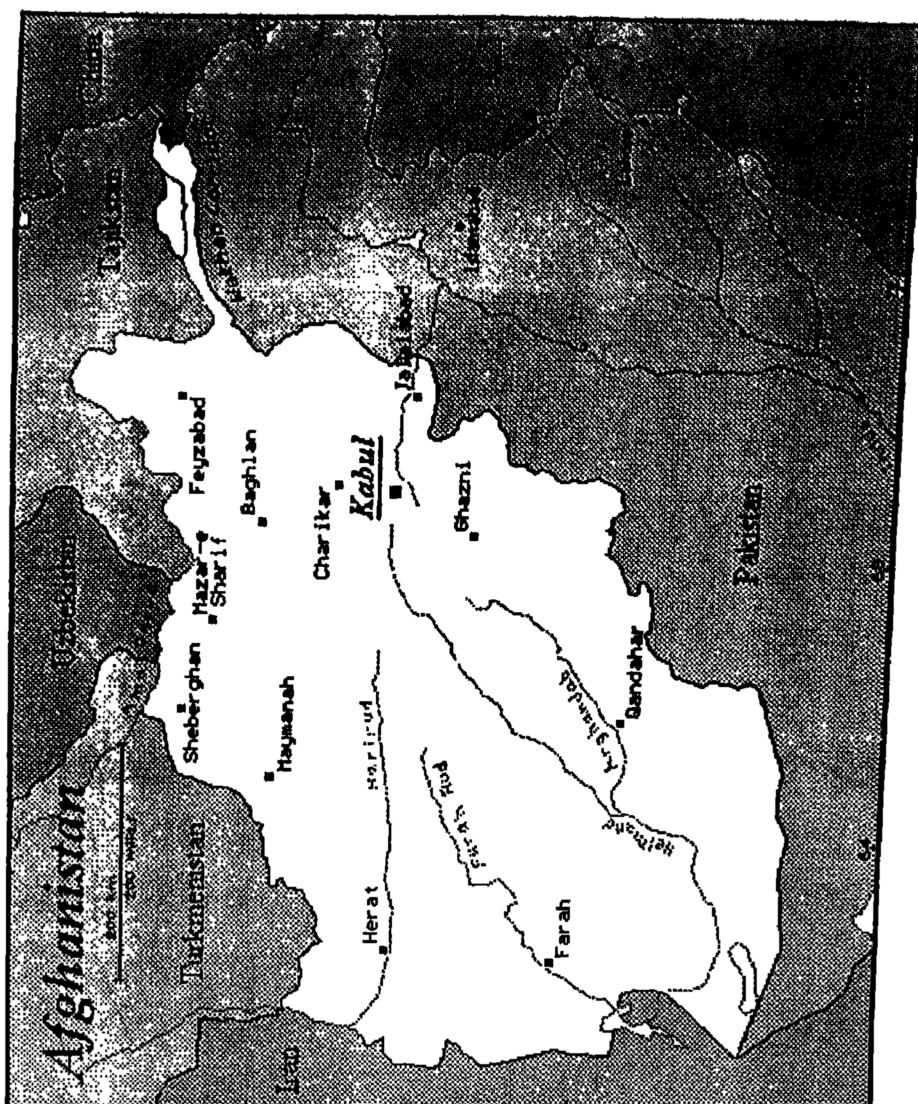
٥- الشيخ الشهيد جميل الرحمن .. موطنه .. نشأته .. دعوته (تحت الطبع)

٦- أفغانستان واللغة العربية عبر العصور

٧- تأثير فكر الأفغانى فى فلسفة إقبال

٨- أبو الطيب المتنبى وخوش حال خان .. نقد ومقارنة


أفغانستان
أوزبكستان
طاجكستان
تركمنستان
فيض آباد
شبرغان
مزار شريف
بغلان
ميمنة
كونر
شاريكار
كابل
هرات
نهر هيري
جلال آباد
إسلام آباد
غزني
نهر فراه
أرغنداب
فراه
قندهار
هلمند
باكستان
لاهور
الهند



رقم الإيداع : ٩٧٦٢ / ٩٥

الترقيم الدولي : .I.S.B.N

977 - 00 - 00 97 - 3

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب



تراث الأمة الإسلامية نابع من أعماقها قوامه القرآن الكريم، وعموده السنة النبوية.. وقد انتاب هذا التراث فى فترات من فترات التاريخ الإسلامى شيء من التمزق والتفرق حيث كان هدف للسهام الموجهة من الاستعمار الغربى..

فقام دعاة الأمة والمصلحون فيها بخوض معارك الكفاح يستنهضون الهمم والعزائم، وينبهون الغافلين لتدارك الأخطار، والاعتصام بالوحدة حتى تكون سدا أمام مطامع الطامعين ومآربهم المشبوهة فى تحطيم تراث الأمة وعقائد الملة..

الأفغانى مؤسس الصحوة.. إمام الدعوة، وفيلسوف الوحدة الإسلامية منح حياته لتشييد صرح هذه الصحوة العملاقة والنهوض بتلك الدعوة الحكيمة التى تركت فى العالم تيارا ما زال يحرك العواطف على امتداد التاريخ يملأ النفوس والقلوب أملا وعملا حتى تلقى هذه الدعوة الفكرية الفيلسوف الشاعر، والمفكر الواعى محمد إقبال الذى أحدث بدوره ثورة اصلاحية فكرية بين المسلمين فى الهند، فكان نعم الخلف لخير السلف فى تجسيد فكر الأفغانى فى العالم الإسلامى، وتحقيق رغبته الملحة فى النهوض بالشعوب الإسلامية وإعادة الروح إلى الجسد الإسلامى..